

# فنون الأدب العربي

الفن الغنائي

١

## الغزل

الجزء الأول

بقلم

الدكتور محمد سامي الدهان



دار المعارف





# الفرزل

منذ نشأ إلى يومنا هذا صدر الدولة العباسية



فنون الأذب العربي

الفن الغنائي

١

# الغزل

منذ نشأته حتى صدر الدولة العباسية

يشترك في وضع هذه المجموعة  
لجنة من أدباء الأقطار العربية

الطبعة الثالثة



دار المعارف

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج ٢٠٠٠ ع.

## تمهيد

الغزل ألصق الفنون الأدبية بحياة الرجل والمرأة ، وهو أشهرها وأكثرها رواجاً وإمتاعاً ، لأن المرأة نصف الرجل وتما عيشه وحياته ، يُكمل بها ما ينقصه من بهجة وسعادة ، وهي مبعث الرضا والغضب والفرح والترح ، وهي مسعينة وإلهامه ، لأنها مظهر الجمال الحي في دنياه ، شغلت حياة الأدباء والمتأديين والقراء والمستمعين ، وألهمت خيالهم وأقلامهم ، وملاّت صحفهم وأوقاتهم .

وقد قام الأدب العربيّ بنصيبه في الغزل العالمي ، فتغنى بالمرأة وأنشد باسمها وجعلها موضع الاستهلال في هجائه ومدححه وحماسته ، ونخصّها بقصائد ومقطعات ، فشغلت عدداً كبيراً من الصفحات يُربى على نصف الأدب العربيّ ، لذلك كثر الغزل وتضخم حتى ليشكّل ديواناً كبيراً جلدّاً ، يحبّه الناس ويقبلون عليه سماعاً وغناء .

والذي يتصفح ديوان الغزل العربيّ يحار في تعدّد ألوانه وأوصافه ، ويعجبه أن ينشئ فيه كتاباً أو يحصر معانيه في سفر ، لذلك كان لنا أن نعتذر عن قصورنا في هذا السبيل وعجزنا عن الاستيعاب فيه ، فكأننا نكتب في تاريخ الأدب العربيّ كلّه ملخصين ، لأن الغزل عاطفة قوية رسمها من أحسن بها ومن لم يحسن ، وتجمّل بها من لم يكن جميلاً في هذا الباب ، فتزين بمحاسنها ليشتهر عنه الذوق والرقّة لعله يروج في قومه . وهنا تبدو صعوبة الحكم في معرفة

الصحيح والزائف والطبيعي والمقلد ، فكل ذلك ذوق ، وللمؤلف منه حظ والقراء  
 حظوظ ، فلا سبيل إلى فرض الرأي وبسط الحكم ، لأن العاطفة لا تشبه العلم  
 ولا يقوم البحث فيها سويًا نهائيًا خالصًا كما قد يقوم في العلم .  
 لذلك نعدّ هذه الصفحات محاولة أولية في عرض أبيات الغزل وصوره  
 وتفسير ما فيها ورواية نماذج منها عصرًا بعد عصر لعلنا نجعل للقارئ صورة  
 بسيطة نهدي فيها ونعيد ونلج ونكرر حتى تظهر المحاولة قريبة من أذهان القراء ،  
 كما يلج المدرس نفسه ويكرر رأيه ليوضح فكرته ويمكن لقوله . ولن نبسط  
 المصادر أو نذكر المراجع أو نحيل إلى كاتب أو صاحب فكرة ورأى ومدرسة  
 ومذهب ، بغية الإيجاز والاختصار ، فنحن نختار من البحوث والأشعار  
 ما يخفّ حملها على القارئ ويغلو ثمنه عند الأديب ، وذلك لنضعه قريباً من  
 النفوس جميعاً يمدّون إليه أيديهم فيقفون منه على ما يريدون في صفحات قليلة  
 وزمن يسير ، والله من وراء القصد .

الدكتور سامي الدهان



## مقدمة

### المرأة والغزل

منذ دبت الحياة البشرية على الأرض سعى الرجل إلى رضا المرأة في أساليب شتى ، تفنن فيها وأعمل براعته وخياله وعبقريته ، فطوراً كان يغنى بالأصوات وطوراً يعزف على الآلات ، وأحياناً يخترع أجمل القول وأطيب الحديث .

والرجل في هذا كله فنان يسعى إلى قلب المرأة لعله يمتلك هواها وقيادها يتخذ الفن سبيلاً إليها ، فهو بذلك يتحدث عنها ويتحدث إليها وحديثه هو الغزل . وقد تغزلت الأمم منذ ولادة الدنيا بأساليب تناسب الأرض والإقليم والجنس والعنصر ، وتوافق الزمان والظروف . ونشأ عن غزل هذه الأمم ديران مختلف الصفحات والألوان ، ضاع عنا كثير منه لكرّ الحداث وتعاقب الحروب والفتوح ، ولم يبق إلا أقلّه . والذي بقي منه يشهد على أن الإنسان هو الإنسان يحب ويهوى ويفصح عن حبه في شعر ونثر مهما اختلفت اللغات والأجناس .

والحضارة في سيرها من الشرق إلى الغرب نقلت ألوان هذا الحب على مدى الأجيال من الصين إلى الهند ومن الهند إلى فارس ومن فارس إلى العراق ومن العراق إلى الشام ومنها إلى جزيرة العرب وإفريقية والغرب . وقد تناولت أم هذه الشعوب صور الحب والغزل وصيغته بألوانها وأفاضت عليه من إحساسها وتقاليدها فنقصت من عمقه أو زادت فيه ، ورققت من حواشيه وبدلت من معانيه

وسبكته بالفاظ وصور تختلف فيما بينها على السبيل والطريق وتتفق كلها في هوى القلب وبث الصباية والوجد .

والمرأة في ذلك كله تنتقل على جناح الشعور والعاطفة والخيال في أجواء الأهم ، فتلبس أثواباً مختلفة وتتخذ أشكالاً شتى ، فهي طوراً ملاك وطوراً إلهة وأحياناً تشبه في ألوانها وأعضائها ما في الأرض والصخر والسماء والماء من حيوان وجماد .

وقد وصلت إلينا أكثر الآداب القديمة وعرفنا كيف تغزلت في آدابها فرأينا ما جاء على الحجر وحفظ على أوراق البردي أو سطر في الكتب ، فقرأنا في شاهنامه الفرس ومهابهارتا الهند وإلياذة اليونان وإنياذة الرومان وأغاني رولان عند الفرنسيين ، وهيلد براند عند الألمان وغيرها من كتب الملحم والأساطير والسير ، وكلها تصف المرأة بألوان قومية ، وتجعلها غاية الرجل وأمنية هواه وأغنية شعوره ومحل خياله .

والعرب في أطوار حياتهم تقلدوا على جوار الفرس واليونان وسمعوا أغاني الأمتين في سبيل رحلتهم إلى التجارة أو زحفهم إلى الحرب أو وقوعهم في الأسر أو جوارهم مع الأسرى ، ولكن أكثر شواهد النقل ضاعت مع الزمن وفقدت في ظلمة الأحقاب .

وقد انبثقت في البلاد المتاخمة للعرب أديان وظهرت تعاليم ، وقام أنبياء وعمرت أديرة وصوامع ، وتنقل بينهم الكتاب المقدس في عهده القديم والجديد ، ولا شك في أنهم سمعوا آياته وعرفوا صوره ، ولم يصل إلينا أثر ذلك كله في آدابهم ، ولم نعرف مبلغ استفادتهم منه أو اطلاعهم عليه . ولعل ذلك لانشغالهم بالغارات والحروب ، أو لعلهم تأثروا بذلك وضاع هذا الأثر فيما فقد من أدبيهم .

وليس من اليسير أن نصدق أن الأهم القديمة والحديثة انتفعت بهذه الآداب

ووقف العرب عن الانتفاع بها . وفي الآداب الأوروبية قديمها وحديثها رجال  
قلّدوا هذه الآداب واستفادوا من آياتها ، فزخر بها أدبهم كما نجد عند الألمان  
والإنكليز والفرنسيين والإيطاليين . ويكفي أن نذكر شاعراً واحداً على سبيل  
المثال هو ألفريد ده فيني ، فقد جعل من آيات الكتاب المقدس منبعاً لوحيه  
ومنهلاً لصوره وقصائده ، فكتب في الحاطئة ، وبنت يفتاح ، وموسى على الطور .  
أجل ليس من اليسير أن نصدق أننا على رغم الجوار وقرب الديار وطول  
المعاصرة لم نعمل خيالنا في اللحاق بهذه الآداب والاستفادة منها ، في القديم  
والحديث ؛ وأننا اكتفينا بما تنبته أرضنا من نبات وما تحويه من حيوان  
وما تملكه من صخر وشجر وماء ، فعكفنا عليه وقصرنا نظرنا على ما حولنا  
فغمسنا الريشة واتخذنا الألوان والصور لمواضيعنا مما نملك وما نرى . لهذا صبغنا  
تماثيل المرأة في الغزل منحوتة من هذا كله ، ولهذا تغنينا بهذه الأناشيد على مدى  
العصور يقلّد بعضها بعضاً في أكثر الأحيان ، فتتردد الصور وتتكرر التشابه  
على شيء من الاختلاف والتطور . وسنحاول أن نصف هذا الاختلاف وهذا  
التطور حين نعرض للغزل العربي على مدى العصور فيما يلي من صفحات .



## الفصل الأول

### الغزل عند العرب

موقع المرأة - مصادر الغزل في أدبنا

عاشت المرأة العربية إلى جانب العربي وشاركته عيشه في السلم والحرب والدعة والاضطراب ، وقاسمتة الحياة في السراء والضراء ، في عيش قاس عنيف ، من حرب ضد الطبيعة وضد بني الإنسان ، فاصطلى جسدها بنيران الحرب والسبي والقتل ، واضطرم قلبها بنيران الحب والهوى .

وقد احتلت في أدبنا العربي صفحات كثيرة ، لأنها كانت مدار حياة الرجل وموضع فخره ومكان شرفه وحى وطنه الصغير ، حارب ليبقى على العشيرة والقبيلة ، فأنشد شعر الحماسة وافتخر بأنه حى أهله وجيرانه ، وهجا أعداءه فثلب أعراضهم وتناول أمهاتهم وأخواتهم وبناتهم ، ومدح فرأى في الممدوح من يكسو صغاره ويحفظ أهله ويكسب بيته المال ويدفع عنه ذل الطلب وعار المرأة ، ورثى فبكى الميت وامتدح فيه صفات الكرم وحفظ العرض والشرف ودفع العار .

أما حديث القلب وحكاية الحب فقد أخذت من حياة العربي وأدبه مكاناً رحباً ، فخلقت لنا هذا الشعر الغنائى في أبسط صورته الساذجة ، يتحدث الشاعر فيه عن نفسه ويرسم فيه مشاعره وعواطفه وأهواءه ورغباته ، ويتحدث عن معشوقته حديث الراغب المشتى ليشفى علة جسده ولينقع غلة قلبه ، لا يعنيه من أمرها ما هى عاياه من عقل ، وما وراء جمالها من فكر ، وما بين جنبها من هم ، أو مثل عليا ؛ فلا يخلق في رسم عواطفها ورغباتها وأهوائها وتفكيرها ،

ولأنما يحوم حول نفسه ، ويجعلها المثال المنشود ، يتحرك الناس في سبيله ويسعى الخلق من أجله ، فهي تحيا حياتها له وهي تعيش لإرضائه .

ونظن أن العربي عاش أربعة عشر جيلاً لا يكاد يفارق هذه الصورة ولا يكاد يختلف عن أجداده في النظر إليها ، بل لا تكاد هذه الغاية تفارق خياله فهي متعته وهي محل رغبته .

ونحسب أن الذي اختلف على الأجيال هو أسلوب التعبير رقّ ونخس ، وصفا وتكدر ، وساء وحسن ، تبعاً لظروف عيشه واختلاف الأوطان وتبدل الأزمان ، ولبثت المرأة هي المرأة يقول فيها شعره ، ويرسل فيها أغانيه ، ويسميه الأدب العربي بالغزل .

والغزل في كتابات النقاد والعلماء شبيه بالنسيب والتشبيب ، تقع اللفظة عندهم محلّ أختها ، ويستبدل بها اللغوي مرادفتها حين يريد ، فهي من غنى اللغة ، وهي تصوّر اختلاف القبائل في تسمية هذا اللون من القول ، يطلقونها على من وصف المرأة أو تحدّث عنها أو تحدّث إليها ، أو لها بها ، أو تخيل قولاً فيها أو قصّة معها ، أو وصف ما تثير في نفسه من حرقة ومن نعيم . وهذا نسيب أو تشبيب أو غزل يرسلونه في أحكامهم وكتاباتهم من غير كبير تمييز أو عظيم اختلاف .

وقد أفرد الأدباء والكتاب من القدماء والمحدثين أبواباً للحديث عن الغزل وفصولاً لاختار النسيب على مرّ العصور ، ورووا من حكايات الغزلين ألواناً من القصص عمل فيها الخيال والاختراع عمله ، فباتت أقرب إلى الكذب والصنعة وأكثر هذه القصص متشابهة ، فقد أحبّ العربي وتولّه وهام ، وسقم واعتلّ وجنّ ، ثم مات ميتة غريبة أرادها القاصّ شعريّة تصلح للمسرح على اختلاف ألوانه من درامة أو فاجعة أو ملهاة .

وتستطيع أن ترجع إلى كتب القدماء كالأغاني والبيان والتبيين والحِوان والأمالى والكامل والعمدة وكتب الحماسة وبيمة الدهر ودمية القصر والخريدة والذخيرة وكتب التراجم والمؤرخين ، ومؤلفات المحدثين كمختارات البارودى وحديث الأربعماء والغزل فى العصر الجاهلى والحب العذرى والغزل عند العرب .... فلذلك واجد فيها صورةً لمجنون ليلى وقيس لبنى وكثير عزة وعمر بن أبى ربيعة والعرجى وغيرهم تتكرر فى أساليب تختلف باختلاف العصور والأوطان .

وستجد أن الغزل على ألوان منه الحبّ العفيف وغير العفيف ، والحب الحقيقى والخيالى ، فهم ينظرون إلى الغزل من جانب الواقع والأخلاق ، فإذا جانّب التاريخ فهو غير حقيقى ، وإذا ابتعد عن اللفظ الشريف والغاية النبيلة فهو إباحى غير عفيف . والحب العفيف هو العذرى لأنه فى نظر كثير منهم حبٌّ شاع فى بنى عذرة .

وستجد كذلك أسماء المعشوقات متشابهة تتردد فى الشعر كما تتردد « ألفير » و « هيلانة » وغيرهما من أسماء النساء فى الآداب الأجنبية ، فقد اخترع لامارتين أسماء لمعشوقاته ولقب الغربيون فى آدابهم معشوقاتهم بألقاب مستعارة ، لأن الناس فيما يبدو لا يقبلون فى أسر أن يشتهر عنهم حديث الحب وسيرة القلب وأن تذيع أسماءهم الحقيقية وكناهم المشهورة وأُسْرهم المعروفة فى حوادث الصباية والوجد .

ولعل المجتمع الإنسانى ما يزال يجد فى المحبّ ضعفاً وفى ذكر المحبوب فضيحة لأن الحب من هزل الحياة وهوها ، وقليل من الأدباء من يرضى بالهزل ومجانبة الجلد . وقد عاشت بطلات الحب فى تواريخ الأدب مغمورات مشهورات معاً ، فإن أسماءهن تضيع فى ثنايا القصائد ولكن أوصافهن وما وقع لهن يتنقل على أجنحة الخيال ، كذلك كان الأدب العربى ، فقد أحبّ الشعراء نساء فى القبائل أو فى البيوت والقصور يَرْضى نزواتهن أن يكون الغزل فيهن .

ولا يعنينا فى هذا الكتاب أن نحكم على الأدباء بأخلاقهم أو مطابقة شعرهم

للواقع التاريخي مثل ما يعيننا سمو غزلهم وعظيم خيالهم وجميل صورهم ورائق لفظهم وبعدهم عن المثل الأعلى في فن الغزل أو قريبهم منه .

والأدب العربي لا يملك من مصادر التاريخ والعلم وثائق تعين على هذه الأحكام ، فقد جاءتنا عن سبيل الرواة قصائد القدماء وسيرهم ، فكانت المعلقات وقصص الغزل وحكايات الإخباريين . ونظن الذين رواوا هذه الأخبار آمنوا في سذاجة وبساطة بكل ما ينقل إليهم وتقبلوا كل ما يلقي إلى سمعهم من غير شك كبير أو نقد علمي .

وأكبر مصادر الغزل في أدبنا العربي كتاب الأغاني نقل إلينا ما رأى في الكتب وما سمع من الرواة أخباراً متضاربة عن حادثة واحدة ، وأثبت لنا من الشعر ما تلصقه حيناً بشاعر وتلصقه حيناً آخر بشاعر غيره . وهذه الأخبار لم ترتب على السنين ، ولم تنقل من دواوين معينة ، ولم تدر حول أبواب منظمة . ولن يستطيع الأدب العربي أن يظفر بكتاب علمي في تاريخ أدبه إلا إذا طبعت الدواوين طباعة علمية منظمة ، وحلّيت القصائد بالأحداث التاريخية الباعثة على نظم الشعر والحكايات الناشئة عنه . وعند ذلك تصبح روايات الأغاني وغير الأغاني مجدية في فهم الحياة الاجتماعية وجو الشاعر ونفسه .

والغزل أكبر عون لنا في فهم هذه الحياة الاجتماعية ، فهو يرسم المرأة في لباسها وفي أعضاء جسدها وفي حركاتها وتنقلها ومنهاج عيشها ، ويرسم ذوق العصر الذي كانت فيه ويصور في شكل قريب إلى الأدب عواطف الشعراء في ذلك العصر إذا كان للشعراء أن يمثلوا بدقة حيثهم أو عشيرتهم أو بلدهم أو أمهم .

وما دمنا لا نملك هذه المصادر الثابتة ، فنحن اليوم في سبيل عرض هذا الشعر الموروث على أنه صورة قريبة الشبه بالعصر الذي قيل فيه من غير أن نقف عند أسماء القائلين وشخصياتهم وسير حياتهم من ولادة ونشأة ووفاة ،



تاركين إلى حين أمر موقعهم من التاريخ ومحلمهم من الزمان والمكان ومنزلهم من الصدق والواقع أو بجانبهم للصدق والواقع .

ولهذا سنعمد إلى بيان ألوان الغزل وصوره في عصورنا الأدبية ، لنعرض الحرقه والأسى والنعيم والسعادة عند الشاعر وعند المعشوقة ، ولنعرف ما كان بينهما من حديث وموقف وسيرة ، كأننا ندرس الفن دراسة علم الأحياء للإنسان ، يبين كيف ولد وكيف ترعرع ودبّ واكتمل ، وكيف شاع في القبائل والبدو والمدن والحواضر والأمصار والأقاليم ، على اختلاف العناصر والأجناس والأديان . أو كأننا نعرض نظرة الشعراء إلى المرأة وما يستحسنونه منها وما يستقبحونه وعلاقتهم بهن في الحلّ والترحال وما عرض لهذه النظرة من تبدل في القوة والضعف ، والرقّة والصلابة ، والسمو والإسفاف ، خلال العصر الجاهلي فالإسلامي فالأموي فالعباسي ثم عصر الانحطاط والعصر الحاضر .

## افصل الثاني

### الغزل في الجاهلية

امروء القيس - النابغة الذبياني - الأعشى -  
زهير بن أبي سلمى طرفة بن العبد - عنترة العبسي .

لا نعرف من هو أول عربي تغزل شعراً ، ولا نستطيع أن نتخيل الأوصاف التي رسم بها أول امرأة عربية كانت موضع الغزل ، فقد ضاعت المصادر ، وضل المؤرخون في بيداء التخمين فأرسلوا أقوالاً غريبة متناقضة ، فلم نعلم علم اليقين من هو الشاعر الغزل الأول . ولن نصدق أن أول غزل عربي كان على هذا الشكل الذي روى لنا في معلقات الشعراء ، فللأثم جميعاً طفولة في الأدب ، ولا يصح أن يشذ الأدب العربي عن هذه الطفولة فيبدأ بالشعر المجود الفخم الذي نقرؤه ونفهمه ونستطيع أن نقلده ، ومن المعروف أنه ليس من سبيل للفرنسي أن يقلد الشعر القديم الفرنسي ، وليس للألماني أن يجد الشبه بين شعره اليوم وشعره القديم .

وقد قرأنا مصادرنا الأدبية فوجدنا أنها تختلف في أولية الشعر الجاهلي ، ووجدنا أن النقد الحديث يشك في نسبة هذا الشعر إلى قائله لبعده الزمن بين القول والجمع ، فلم نجد حيلة في الحديث عن أرائل الغزل العربي إلا هذا الشعر الذي وصل إلينا على أنه شعر الجاهلية الثانية . ولعل هذا الشعر يشبه الجاهلية الأولى ، ونحن نعرف أن العربي يقلد فيأخذ ناشئ عن مسن وراوي عن منشد ، يتدارسونه في أسواقهم وفي سمرهم وفي اجتماعاتهم ، فيتشبه شاعر بشاعر لضيق المجال وموطن الاختراع ، وهذا يبعث المشاكل في النقد والدراسة وتاريخ الشعر وتحليله . غير أننا مضطرون إلى متابعة الأدباء القدماء في ترتيبهم لأزمان الشعراء ، حتى تتبين لنا نظرية علمية في ترتيبهم ووثائق في تأريخهم ، فالنقد هين ولكن البناء عسير .

امرؤ القيس : جاءنا أنه أول من وقف واستوقف وبكى واستبكى ،  
فكأنهم يجدون فيه الغزل الأول ، وقف على الديار يبكي الأحبة ، وطلب إلى  
أصحابه أن يشاركوه الأسى في الحزن لفراقهم . فالغزل بدأ حزيناً وولد باكياً  
كما يُولد الإنسان ، وظل كذلك فيما نرى خلال العصور لا يشد إلا في القليل  
النادر . ولعل "مرد" ذلك إلى شقاء الحياة وأتاعبها بين الرمال والحيم وقسوة الجزيرة  
على السكان والاضطرار إلى الرحيل والتنقل . وهذا الشقاء نفسه خلق الغزل ،  
فهناك لقاء بين الحبيب والحبيبة ما يلبث أن ينقطع وهناك سعادة ما تلبث أن  
تزول ، وهذا الانقطاع والارتحال في سبيل الكلا أو السعى إلى التجارة أو الرحيل  
إلى الغزو أو الانتقال في مصالح الحياة طبع الغزل بطابع الفرح للقاء والحزن للوداع  
وجعله أمانى متلاحقة ودعاء متواصلاً في سبيل واحد هو الاجتماع الذي  
لا تفرق بعده ، اللهم إلا "من" رزق الغنى والترف والإمارة والفراغ فهو على شيء  
من الاختلاف غير يسير ؛ وذلك شأن الملك الضليل كما سماه المؤرخون .

فلقد عاش امرؤ القيس في يسر من العيش ورخاء ، فاجتمع إلى النساء  
اتصل بهنّ وتفترغ لهنّ فوصفهن ورسم لنا خلواته إليهنّ رأسفاره معهن ولحاقه  
وبهنّ ، فكأن حياته حياة زيرنساء وكأن أيامه أيام غزل وتشبيب ، وهو مع ذلك  
كله أول من بكى واستبكى في غزله . . .

والذين نقلوا إلينا ديوانه جمعوا فيه هذا اللقاء المتواصل وهذا الرحيل المتتابع  
لا في سبيل الكسب والتجارة وإنما في سبيل المرأة ، فجاءت فيه أيامه الخاصة  
وغزواته عند النساء وإغاراته عليهن وفوزه وانتصاراته في ذلك كله . وفي تلك  
الأيام صور حيّة لما كان بينه وبينهن ، فيرمأ عقر المطية للعذارى وقضى سروره  
ولذته فقال :

ويومَ عقرتُ للعذارى مطيّي      فيا عجباً من رحلها المتحمّل

فظل العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهدّاب الدمقس المقتل

ويجب أن يذكر القارئ ما كانت تكلف الناقة آنذاك ، وما كان ينفق الشاعر في سبيل هواه وغوايته ، حتى إذا وصل إلى الخدر قال :

ويوم دخلت الخدر خدر « عنيزة » فقالت لك الولايات إنك مُرْجلى  
تقول وقد مال الغبيط بنا معاً عمّرتْ بعيرى يا امرأ القيس فانزل  
فقلت لها سيرى وأرحى زمامه ولا تبعدينى عن جناك المعسل

وهناك يوم ثالث على ظهر الكتيب :

أغرك منى أن حبك قاتلى وأنك قسمت الفؤاد فنصفه  
وأنك مهما تأمرى القلب ينفعل قتيل ونصف فى حديد مكبل  
وما ذرفت عيناك إلا لتضربى بسهميك فى أعشار قلب مقتل

ولسنا ندري مبلغ الصديق فى هذه الانتصارات وهذه الأيام ، ولكننا نجد أن الشاعر الجاهلى فهم قدر الريق وعرف سحر العينين ، وأبكى النساء لفراقه بعد تردّد فى قبول صحبته وإمامه ، وذكر ما فعلت بقلبه من قتل وأسر . وهذه هى المعانى التى طرقتها من بعده فزاد عليها ونقص منها ، فهو فى ذلك إمام وهم مقتدون . به حتى ليسلكون سبيله فى الأوصاف . ولذرو كيف دخل على صاحبته وقد أقبل الليل ، ومشت الفتاة إلى النوم فإذا به يغريها وإذا بهما فى نزهة ليلية جميلة يقضيانها فى حديث وسمر ، يصفها ثم يقول :

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجّنجل<sup>(١)</sup>  
وجيد كجيد الریم ليس بفاحش إذا هى نصّته ولا بمعطل<sup>(٢)</sup>

(١) مهفهفة : ضامرة البطن - مفاضة : كبيرة البطن - ترائب : النحر وهو موضع القلائد - مصقولة : مجلوة - السجّنجل : المرأة .  
(٢) فاحش : أى مسرف فى الطول - نصّته : رفعته .

وفرع يزين المتن أسود فاحم أثبت كقنو النخلة المتعشك<sup>(١)</sup>  
غداثره مستشزرات إلى العلا تفضل المداوى في مثني ومرسل<sup>(٢)</sup>  
وكشف لطيف كالجديل مخصر وساق كأنبوب السقي المذل<sup>(٣)</sup>

لأنها بيضاء ضامرة البطن يبدو نحرها كأنه مرآة في نقائه وبياضه ، وجيدها كعجيد الغزال محلى جميل ، وشعرها يبلغ إلى ظهرها فيزيئنه بسواده الفاحم كأنه في تبعثه كأغصان النخل ، وغداثرها مجدولة مقصوصة ، وأما ظهرها وساقها فهما من الإبداع في التكوين كزمام الناقة ونبات البردى ،

وقد وصف الرأس والشعر والنحر والظهر والساق واختار لها ألواناً وأصباغاً مما حوله فلم يغفل منها اللون والظلال كما نقول اليوم ، وقد تبعه في هذا شعراء الجاهلية ومن بعدهم فساروا على طريقته ، وطرقوا الغزل الحسى المادى في وصف الأعضاء جميعاً وإيجاد ما يشبهها ، فكأنهم يكررون قوله أو يجدون عسراً في تنكب سبيله واختراع أسلوب جديد في الوصف ، أو كأنهم نظروا إلى الغزل نظرته من أنه نحت تمثال للمحبوبة يضع الرأس والجسم والأعضاء ، ثم يختار شكل الرأس ولون الشعر والعينين والفم والأسنان وبياض النحر والجسد واستدارة اليدين والرجلين ثم يكسوها الأساور والخلائل ويدهنها بالطيب ويختلف إلى الأسنان فيجعلها بيضاء . وهو حرّ بعد ذلك في أن يتخيل ريقها العذب ، وسحر عينها ، والتفاتة جيدها ، وفتنة منطقتها ، وعدوبة حديثها ، فكأنه بعد أن نحتها حر كها ثم أكسبها النطق ، ووصف أثر ذلك كله في نفسه .

وكأنه بعد ذلك أقبل إليها يغازلها فتمايلت عليه وانتشر الطيب منها وأضاء

(٣) فرع : جديلة الشعر هنا - المتن : الظهر - فاحم : أسود - أثبت : غليظ - قنو : شراخ - المتعشك : المتراكم بعضه فوق بعض .  
(٤) مستشزرات : مجدولات - تفضل : تغيب - المداوى : ج مدرى وهو ما يخلل به الشعر ويحك به الرأس - مثني : متجدد - مرسل : غير متجدد .  
(٥) الكشف : ما بين الحاصرة إلى الضلع الخلفية - الجديل : زمام الناقة - السقي : نبات البردى - المذل : المحروس .

بياض جسدها ، فوصفها عارية ، ووصفها في مرطها ، ورسمها في سيره معها  
وعمد إلى تنعمها فرآها تطيل النوم .

وهو في هذا الوصف لا يختلف عنه في الأبواب الأخرى من الشعر ،  
فكأنه يرسم الرمال والجبال ، أو يصف الخيل والناقة ، أو يصور السماء والماء ،  
وكأنه يريد أن ينتهي إلى الفخر بين أتريابه وسامعيه وقد عاد من صيد النساء كما  
يعود من صيد الحيوان وفي بجعبته الطرائد ، وفي ذهنه ذكرى الرحلة والغزوة :

|                               |  |
|-------------------------------|--|
| سموتُ إليها بعد ما نام أهلها  | سمو حَبَاب الماء حالاً على حال <sup>(١)</sup>    |
| فقلتُ : سبائك الله إنك فاضحي  | ألست ترى السَّمار والنَّاس أحوالى <sup>(٢)</sup> |
| فقلتُ : يمين الله أبرح قاعداً | ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى <sup>(٣)</sup>       |
| حلفتُ لها بالله حلفه فاجر     | لناموا فما إن من حديث ولا صال <sup>(٤)</sup>     |
| فلما تنازعنا الحديث وأسمحتُ   | هصرتُ بغصن ذى شماريخ ميال <sup>(٥)</sup>         |
| وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا   | ورضتُ فذلتُ صعبةً أى لإذلال <sup>(٦)</sup>       |
| فأصبحتُ معشوقاً وأصبح بعليها  | عليه القَتام ، سبي الظن والبال <sup>(٧)</sup>    |
| يغط غطيظ البكر شد خناقه       | ليقتلنى والمرء ليس بقتال <sup>(٨)</sup>          |

فقد نهض إليها بعد أن نام أهلها ، فلما رآته خافت الفضيحة ، ونهته إلى  
السَّمار والنَّاس ، فحلف أنه لا يبرح مكانه ولو أوردوه الردى وهو يعلم أنه  
ما قدم إلا بعد سكوت السامر وخمود النار . فلما تحدتُ إليها لانت له وتسلم  
جسدها كغصن ميال ورق الحديث وسهل الصعب وأصبح وهى عاشقة

- 
- (١) سموت : نهضت - الحباب : الفقايع التى تظهر على سطح الماء .  
(٢) سبائك الله : رماك بالاعترا ب وأبعدك - السَّمار : ج سامر ، وهم المجتمعون ليلاً .  
(٣) أبرح قاعداً : لا أبرح قاعداً فى مكانى - أوصالى : مفاصلى .  
(٤) فاجر : فاسق - لناموا : لقد ناموا - الصالى : المستدفى بالنار .  
(٥) أسمحت : لانت وانقادت - هصرت : جذبت - شماريخ : أغصان .  
(٦) رضت : ذلت الصعب منها - ذلت : لانت .  
(٧) القَتام : غبار الخزى - سبي البال : سبي الحاطر .  
(٨) البكر : الفتى من الإبل .

وأصبح بَعْلُهَا كثير الهمّ لتغير حالها معه ، ينام نوم المحزون ويغط غطيظ الإبل .

وهذا فخر جديد بالحُب والشجاعة والنصر كما قلنا ، فهو يردّ في قصيدته أمام أترابه وسامعيه أنه زار المرأة في خدرها وبلغ منها ما يريد على رغم الأهل والجيران والسيار والناس وانتصر على زوجها ، فهو يعلم أنه يهذى بتهديده وليس يفعل أمراً . وقد وصف امرؤ القيس في قصيدة واحدة ما وصفه الشعراء بعده من جسم المرأة ، ووصف زيارته لها في الليل وتحدثه إليها ، ونقل إلينا ما دار بينهما من حوار قصير مقتضب ، نرى أنه سيطول ويمتد عندما يبلغ عمر بن أبي ربيعة ، ثم رسم النصر الذي أحرزه على زوجها ، وسرى ذلك عند غيره بعده ممن يسير على سننه ويتتدى بخطاه .

ويلاحظ القارئ أن امرأ القيس ضمّ في معلقته أخباراً عن نساء عدة ، وصفهن وزارهن وبلغ منهن مأربه ، فكان المعلقة تحوى قصائد عدة من ديوانه جمع بعضها إلى بعض ، فقد تسوّ البيوت غير مرة ، وهصر بالفود وبالغصن غير مرة . لذلك لن نروى من قصائده الباقيات في ديوانه فكلّها شبيهة بهذا الذي نقلنا ، وكلّها تدل على أن الشاعر أصاب من الغزل ما لم يصبه غيره ، وهو السابق فيما زعموا وهم اللاحقون فيما نرى .

والنابغة الذبياني ( زياد بن معاوية ) من مشاهير شعراء الجاهلية ، يعدّ في الطبقة الأولى عند كثير من النقاد ، وقد هجم كذلك على الغزل ووصف النساء فقال من قصيدة :

غراء أكمل من يمشى على قدم حسناً وأملح من حاورته الكلاماً<sup>(١)</sup>  
فهي بيضاء ، وهي أحسن النساء ، بل أحسن من يمشى على قدم حسناً وملاحة . ثم وصفها في قصيدة أخرى فقال :

(١) غراء : بيضاء .

قامت تراءى بين سجنى كلة  
أو درة صدفية غواصها  
كالشمس يوم طلوعها بالأسعد (١)  
بهج متى يرها يهل ويسجد (٢)  
أو دمية من مرمر مرفوعة  
بنيت بأجر يشاد وقرمد (٣)  
سقط النصف ولم ترد إسقاطه  
فتناولته واتقتنا باليد (٤)  
بمخضب رخص كأن بنانه  
عنم يكاد من اللطافة يعقد (٥)  
نظرت إليك بحاجة لم تقضها  
نظر السقيم إلى وجوه العود

حتى يقول :

لو أنها عرضت لأشمت راهب  
لرنا لرؤيتها وحسن حديثها  
عبد الإله ضرورة متعبد (٦)  
ونخاله رشداً وإن لم يرشد  
فهى بيضاء كالشمس وهى درة جميلة ودمية مرمرية ، وحين سقط خمارها  
ظهرت أصابعها المخضبة ، ونظراتها ناعسة ، ولو أنها عرضت لراهب مسن لم  
يعرف النساء عمره لجن بها . وقد نقل الرواة أن هذه القصيدة قيلت فى المتجردة  
زوجة النعمان ، وأن المنخل اليشكرى كان يحبها وقد وصفها فى قصيدة جميلة  
قال فيها :

ولقد دخلت على الفتاة  
والكاعب الحسناء تر  
ة الخدر فى اليوم المطير  
فل فى الدمقس وفى الحرير  
فدفعتها . فتدافعت  
مشى القطاة إلى الغدير  
ولثمها فتنفست  
كتنفس الظبي البهير

- 
- (١) السجف : السر الرقيق - برج الأسعد : برج الحمل ، والشمس تكون فيه على أكل ضياء .  
(٢) الدرة : اللؤلؤة .  
(٣) الدمية : التمثال من المرمر - القرمد : الخرف المشوى .  
(٤) النصف : الحمار وهو نصف الثوب .  
(٥) البنان : الأصابع - عنم : شجر لين الأغصان أحمر اللون .  
(٦) الراهب : المتعبد - الأشمت : الأشيب - ضرورة : الذى لم يتزوج .



وبدت وقالت يا من  
ما لمس جسمي غير حبك  
فأعزني عنى وسيرى

وبعيد بين ما نسب إلى النابغة وما ألصق بالمنخل ، ولكننا نرويه على أنه  
من الغزل في العصر الجاهلي لتصل إلى أن النابغة لم يخرج في أوصافه عما عرفنا  
من ألوان عند امرئ القيس ، وقد زاد عليه الإشكاري في ألوانه فشبهها بالقطاة  
تمشى إلى الغدير وأنها تتنفس كتتنفس الظبي البهير .

والأعشى (ميمون بن قيس) وحده يقف مع امرئ القيس في صف واحد  
أمام محراب الغزل ، فقد تغزل بالنساء واعترف بأنه كان يسبيهن ويخرجهن من  
حدورهن ، وأنه ظل عمره يحن إلى لقائهن والتغزل بهن ، فوصفهن بأوصاف  
رقيقة جميلة منها قوله :

حرّة طفلة الأنامل ترة بّ خاماً تكفّه بخلال<sup>(١)</sup>  
وكان السّموط عكفها الا لكّ يعطني جيذاء أم غزال<sup>(٢)</sup>  
فهى لينة الأنامل والشعر وقلائدها أشبه بشعر علق بجيد غزال . أما لون الوجه  
وأعضاء الجسم فقد فصل الشاعر القول فيه :

من كل بيضاء ممكورة لها بشر ناصع كاللبن<sup>(٣)</sup>  
عريضة بوض إذا أدبرت هضم الحشا شخنة المحتضن<sup>(٤)</sup>  
بيضاء مثلثة بعض الشيء لونها أبيض ناصع وعجزها عريض في بطن هضم  
وحضن دقيق . وهنا زاد الأعشى في وصف العجز والحضن فحسب ،

---

(١) طفلة : لينة - ترة : تفتل - السخام : الشعر اللين : الخلال : المدري وهو المشط  
(٢) السوط : القلائد - عكفها : علقها - الجيذاء : طويلة العنق .  
(٣) ممكورة : مثلثة من اللحم مع دقة العظام - البشر : الجلد .  
(٤) بوض : عجز - الحشا : ما في البطن من الأمعاء - شخنة : لطيفة ودقيقة - المحتضن :  
الحضن .

وأشهر شعره في الغزل صدر قصيدته اللامية التي يقول فيها :

غراء فرعاء مصقول عوارضها تمشى الهويناء كما يمشى الوجى الوحيل<sup>(١)</sup>  
 كأن مشيتها من بيت جارتها مر السحابة لا ريث ولا عجل<sup>١</sup>  
 صفر الوشاح وملء الدرع بهكنة إذا تأتى يكاد الحصر ينخزل<sup>(٢)</sup>

إنها بيضاء طويلة الشعر مصقولة الأسنان بطيئة المشية ، دقيقة الحصر  
 عظيمة الأرداف . وصاحبة الأعشى قوية التأثير عظيمة الفتنة فيقول في جمالها :

لو أسندت ميتاً إلى نحرها عاش ولم ينقل إلى قابر  
 حتى يقول الناس مما رأوا يا عجباً للميت الناشر

فهى تحيى الميت حين يستند إلى نحرها وهى تفعل المعجزات بجمالها  
 وسحرها . ويقول كذلك في وصفها :

بيضاء ضحوتها وصفة راء العشية كالعراره<sup>(٣)</sup>  
 وسبتك حين تبسمت بين الأريكة والستاره  
 بقوامها الحسن الذى جمع المدادة والجهاره<sup>(٤)</sup>  
 كتميل النشوان يتر فى البقيرة والإزاره<sup>(٥)</sup>  
 وغداثر سود على كفل تزينه الوثاره<sup>(٦)</sup>

(١) غراء : بيضاء - فرعاء : كثيرة الشعر طويلته - العوارض : الأسنان - الوجى : الذى  
 حنى قدماء أو حافره - الريث : البطء .

(٢) صفر الوشاح : وشاحها : خال من دقة خصرها - ملء الدرع : كبيرة الأرداف - بهكنة  
 ضخمة الخلق - تأتى : تترفق - ينخزل : ينقطع .

(٣) صفراء المشية : لأنها تزين وتعلل جسمها بالزعفران والطيب - العرارة : شجر قدر  
 شهر له نور أصفر .

(٤) الجهارة : الروعة .

(٥) البقيرة : ثوب يشق فيلبس بغير أكمام - الإزارة : الملحفة .

(٦) الوثارة : كثرة اللحم والطراوة .

وأرتك كفنًا في الخضا ب وساعداً مثل الجبارة<sup>(١)</sup>  
ولإذا تنازعك الحدي ث ثنت وفي النفس ازوراره

وهذه الصورة ترينا معشوقة الأعشى بيضاء البشرة في النهار فإذا أمسى  
الليل تطيبت بالزعفران ، في قوام بديع مديد تتثنى وفي ثوب يبين عن ساعديها  
تختال كالنشوان ، وغدائر شعرها تهبط على كفل وثير ، وكفها مخضب ،  
وهي ذات دلال في حديثها .

وهكذا رأينا أن الشاعر امتد إلى كل شيء فوصفه ، فكأنه وقف ريشته على  
اصطياد الألوان والظلال ؛ ومثل هذا كثير في ديوانه يتمتع النفس والقلب جميعاً .

وزهير بن أبي سلمى شارك على رصانته ووقاره في معركة الغزل ووصف المرأة  
وعرض لها في مطالع قصائده ، وبين لنا عشقه ، فقال في « أسماء » :

قامت تبدى « بذي ضال » لتحزني ولا محالة أن يشناق من عشقا<sup>(٢)</sup>  
يجيد مغزلة أدماء خاذلة من الظباء تراعى شادناً خرقا<sup>(٣)</sup>  
كان ريقها بعد الكرى اغتبت من طيب الراح لما يبعد أن عتقا<sup>(٤)</sup>

قامت تراعى لي بعنق كجيد الغزالة المتباطئة خالصة البياض وأنى للعاشق  
أن يقف عن الشوق ، وأما ريقها فهي الراح من طيب الراح لم يفسد ولم يفتر عن  
بعث النشوة والسكر . وهنا وصف زهير رأسها والتفاتة عتقها وما في ريقها من  
سحر . وهو يقول في قصيدة أخرى :

(١) الجبارة : سوار عريض .

(٢) ذي ضال : موضع .

(٣) أدماء : خالصة البياض - خاذلة : متأخرة عن الظباء - الخرق : الذي لا يقدر  
أن يتحرك .

(٤) اغتبت : شربت على ريقها غبوقاً وهو شرب الليل .

تنازعها المها شهباً ودرّ الـ بحور وشاكت فيها الظباءُ  
فأما ما فويق العقد منها فن أدماء مرتعها نخلاءُ  
وأما المقلتان فن مهاة وللد الملاحاة والنقاءُ

ففيها شبه من البقر في العيون ومن الدر في الصفاء ومن الظباء في طول  
العنق ، وهي بيضاء حرّة ليس في الفلاة من يراعها ، وبذلك ألح على معانيه  
المتداولة من سواد العيون وصفاء البشرة .

وما نرى عند زهير إلا شبه البقر والظباء ودر البحور في الصفاء ، والنساء في  
نظرة مخبّيات في خدورهن ليس لهن إلا الزفاف والزواج ، فهو قاس عنيف حتى  
ليصور زيارة المرأة كزيارة الحمى :

أبت ذكراً من حب ليلى تعودني عياد أنحى الحمى إذا قلت أقصرأ  
ولا نرى من ضمير عليه في ذلك ، فهو قد دخل المعركة ليستهل قصائده  
وينتقل من الغزل إلى أغراضه على جسور من الألفاظ يقول فيها : « دعها . . .  
ودع ذا . . . » لينتهي إلى غايته من مديح وهجاء ، وما ذكر ليلى وسلمى وأسماء  
إلا أسباب ومهدات ، فإذا وقعنا على غزل لطيف فهو من بديع الصنعة  
والتقليد ، وذلك مثل قوله :

متى ترى دار حتى عهدنا بهم حيث التقى الغور من نعمان والنجد  
لهم هوى من هوانا ما يقربنا ماتت على قرية الأحشاء والكبد  
وهو من قبيل التملح بذكر المرأة والتغزل بها ، فزهير قد شغل بتزاغ القبائل  
ونزوع نفسه بعد هرمه إلى الله ، وتذكر الحجاج التسعين وقد سلخها فغدا قريباً  
من حفرة يهوى فيها ، يحثه سائق الردى إلى أن يبعث يوم النشر وقد خلف وراءه  
صفحة بيضاء خالية من العبث في الغزل والمجون فيه .

وأما طرفة بن العبد فقد كان قريباً من منهل الغزل ، أحب كما يبدو في  
شعره وهام ، وتعلّق قلبه فوصف ذلك في قوله :

فكيف صبوت أو ترجو مهاة منعمة تزار ولا تزور  
جلت برداً فهش له فؤادى فكدت إليه من شوق أطير  
برهره يحار الطرف فيها وليس ينال من نحول اليسير

فهى مهاة فى عينها وهى طيبة الأسنان بيضاء الجسد ، يخف لها الفؤاد  
ويرتاح ويحار الطرف فيها ويضيع . وطرفة يالوم الزاجر واللاحى فى حبه :  
ألا أيهاذا الزاجرى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلصى ؟

إن المرء غير مخلص فلينفق ماله فى الفتوة واللذة وقد فعل فيما يبدو :

وقد ذهبت سلمى بعقلك كله فهل غير صيد أحرزته حباؤه  
كما أحرزت أسماء قلب مرقش بحب كلمع البرق لاحت مخايله  
فلما رأى أن لا قرار يقره وأن هوى أسماء لا بد قاتله  
ترحل من أرض العراق مرقش على طرب تهوى سراهاً رواجه ،

وكما أن الحبايل لا تأخذ غير الصيد فإن الجمال لا يستهوى إلا أهل الصباية ،  
الم تر إلى المرقش عمى وقد أحرزت أسماء قلبه بحب كلمع البرق لاح فى قلب  
السحاب ، فلما رأى بعد القرار عنه رحل إلى العراق فى طلب الراحة والهدوء ،  
ولكنه قضى نحبه فيها . فلم لا أكون كعمى ولم لا يكون قلبى كقلبه :

فوجدى بسلمى مثل وجد مرقش بأسماء إذ لا تستفيق عواذله  
قضى نحبه وجداً عليها مرقش وعلقت من سلمى نجبالاً أماطله

واستبد الحب بطرفة فوقف مع محبوبته ساعات واستوقفها كذلك :

قنى قبل وشك البين يا ابنة مالك وعوجى علينا من صبور جمالك  
قنى لا يكن هذا تعلّة ساعة لبين ولا ذا حظنا من نوالك  
أخبرك أن الحى فرق بينهم نوى غربة ضراوة لى كذلك  
ولم ينسنى ما قد لقيت وشفنى من الوجد أنى مولع بالدكادك

وفيها يبسط حرقه وأسى لهذا الفراق ، فهو مولع بمواطن الهوى والشباب  
وقد بلغ به الحب أنه لا ينام :

بلغا خولة أنى أرق<sup>(١)</sup> ما أنام الليل من غير سقم<sup>(٢)</sup>  
كلما نام خلى<sup>(٣)</sup> باله بت<sup>(٤)</sup> اللهم أنجيت<sup>(٥)</sup> لم أنم<sup>(٦)</sup>  
منع التغميض منى ذكرها فهي همتى وحديثى وسدم<sup>(٧)</sup>  
صادت القلب بعينى جؤذر وبخد<sup>(٨)</sup> فوقه المرجان جم<sup>(٩)</sup>  
وبمستن<sup>(١٠)</sup> على أردافها مسكر<sup>(١١)</sup> كعناقيد السخم<sup>(١٢)</sup>  
وجبين<sup>(١٣)</sup> لم يعبه حقه زانه الخلد<sup>(١٤)</sup> وعرنين<sup>(١٥)</sup> أشم<sup>(١٦)</sup>  
أحسن الناس إذا ما سئلت وبدا الخلدخال ساقاً بقدام<sup>(١٧)</sup>  
منية النفس إذا ما جرّدت ومشت حول حشايا وقرم<sup>(١٨)</sup>

ولسنا ندري كم ترك طرفه لغيره حين وصف خولة وأرقه في هواها فقد صادته  
بعينى جؤذر وخد<sup>(١٩)</sup> كأنه المرجان وشعر كعناقيد الريش وجبين ناصع ، فهي  
أحسن الناس إذا ما سئلت أمراً ، وهى أمنية النفس حين تمشى بين السرير  
والستائر في بيتها وقد خلعت إلى النعيم والسرور ، فقد وصف العينين والخلد<sup>(٢٠)</sup>  
والأنف والشعر والجبين والخلخال في ساقها ، ثم رسم قلقه وأرقه وهمه . ومثل هذا  
كثير في ديوانه ، يزور صواحيبه والناس هجّع ويعود بغنيمة أى غنيمة .

وقد نقلت إلينا كتب الأدب شعراء جاهليين تغزلوا في قصيدهم واستفتحوا  
بالنسيب فأجادوا حيناً وسقطوا أحياناً ، وهم لا يخرجون في أغراض الغزل وأساليبه  
عما رأينا عند فحول الجاهلية ، فلا فائدة من عرض هذا الشعر وتعيد هذه  
الأسماء ، فلسنا نؤلف تاريخاً في الأدب وإنما نبسط فنناً من فنونه نعرض فيه لمن

(١) سدم : هم .  
(٢) المرجان : صغار اللؤلؤ - جم : كثير .  
(٣) المستن : الشعر الذى يتهدل على أردافها لطوله - أرداف : ج ردف ، وهو العجز -  
مسكر : طويل ممتد - السخم : ج سخام وهو الريش اللين .  
(٤) حقه : أخاط به - زانه : زينه - عرنين : أنف - أشم : مرتفع .

تطرق إلى الغزل لعلنا نجد عنده جديداً في هذا الباب أو اختراعاً فيه .

ونقلت إلينا هذه الكتب كذلك شعراء جاهليين اختصوا حبهم بامرأة واحدة في كل شعرهم ، ولكنهم جعلوها سبيلاً إلى معاني البطولة والبأس في الحماسة والهجاء ، فكانت في دواوينهم وسيلة لا غاية ، وهم مع ذلك لم يخرجوا عن دائرة الشعراء الفحول في هذا الغزل ، ولم يشتهروا بعقبتهم وجنونهم كما اشتهر العذريون في الحجاز بعدهم ؛ لذلك لن نحصى هنا دقائق قلوبهم وألوان رسومهم وأنماط وصفهم للمرأة فهذا كثير ، ولكننا سنعرض لشاعر واحد وهو عنتره نعم به بحثنا ، لأننا نرى أن شعره بسيط سهل لا يتصل بالجاهليين كما يتصل بمن بعدهم ، ولعل الرواة ألصقوا بديوانه كل ما كان في الفخر بسواد البشرية أو الشجاعة عند المحبوبة .

أحب عنتره العبيّ عيلة ، وحارب في سبيل هواها كما يزعم القدماء فيقول :

يا دار عيلة بالخواء تكلمى وعمى صباحاً دار عيلة واسلمى  
دار لآنسة غضيض طرفها طوع العناق لذيدة المتبسم

فهو يحبي الدار ويذكر الآنسة الجميلة غضيضة الطرف لذيدة الفم  
شبهة العناق ، ويقول فيها يدم الفراق :

|                            |                           |
|----------------------------|---------------------------|
| غراب البين مالك كل يوم     | تعاندى وقد أشغلت بالى     |
| كأنى قد ذبحت بحد سيفى      | فراخك أو قنصتك بالحبال    |
| بحق أبيك داوى جرح قلبى     | وروح نار سرى بالمقال      |
| ونخبر عن عيلة أين جلت      | وما فعلت بها أيدى الليالى |
| فقلبي هائم فى كل أرض       | يقبل لائر أخفاف الجمال    |
| وجسمى فى جبال الرمل ملقى   | خيال . يرتجى طيف الخيال   |
| وفى الوادى على الأغصان طير | ينوح ونوحه فى الجو عال    |
| فقلت له وقد أبدى نحيباً    | دع الشكوى فحالك غير حالى  |

أنا دمعى يفيض وأنت بالك بلا دمع فذاك بكاء سال  
لحا الله الفراق ولا رعاه فكم قد شكّ قلبي بالنبال  
أقاتل كلّ جبار عنيد ويقتلنى الفراق بلا قتال

وهذا الشعر لا يشبه ما رأينا من غزل الجاهليين ، فهو لا يصف الجسد ولا يعبا به وإنما يصف الحبّ في نفس العاشق ويرى غراب البين بهمة التفريق ، ويهيج الطير على الأغصان فينوح ويفيض دمه ، وهذا قريب من شعر أبى فراس الحمداني حين سمع حمامة تنوح ، بل هو يشبه في لفظه قول المتنبي : « وتقتلنا المنون بلا قتال » . وما نرى براعة في إلباق هذا الشعر بعنّة كما نرى عند من اصطنعوا أشعار العذريين ، فقد تشبهوا بشعر العصر الأموي في الحجاز فبلغوا بعض ما يريدون ، ولكنّ صانع عنّة أخطأه التوفيق فأخرج شعره من الجاهلية ولم يقرأ دواوين الغزلين قبل الإسلام ، ولم يفهم خصائص الوصف المادى عندهم . ولقد سقنا عنّة لنخرجه من شعراء الجاهلية ، لثلا يتساءل ناقد عن قصورنا في قراءة غزله .

ولولا هذا الشك الذي يكتنف أكثر الشعر الجاهليّ لنخرجنا بصورة للغزل قريبة من الحق والوضوح ، ولكننا لن نوفق في هذا ما دامت عناصر العلم مفقودة وصكوك التاريخ لم تصل إلينا ، فنحن سنكتفى بالعرض دون الحكم التاريخي .

\* \* \*

وخلاصة القول أننا رأينا في الغزل الجاهليّ وصفاً جسدياً للمرأة ورسمًا لإحساس الشعراء أمام هذه التماثيل البشرية ، ينحنون أمامها خاشعين لبياض الجسد ونقاء البشرة وصفاء الأسنان ، وطول الشعر وعذوبة الريق وارتفاع العنق وسواد العينين والتفاتة الغزال ، ودقة الحصر وثقل الأرداف ، ثم يعجبون بالترف والتعظيم لنزوم الضمى والمتطيّبة والكسول في دلّ وثنّ ؛ ويسكرون بهذا كله إذا أتيح لهم اللقاء والنوال .

ولكن أين العشق العميق واللهو الطويل والقصص الذي يدور والحديث



الذى يقع ؟ لانهم فرسان يغيرون على أجنبية المحبوبة فى الظلام أو فى ضوء القمر  
 فيسلثون السيوف ويهاجمون الحراس ويقضون الليل فى سمر بخيل وغزل لطيف  
 من غير شك . ولكنهم لم يصفوا لنا ما كانوا يفعلون كما وصفه العصر الأمويّ  
 حين استراح شعراؤه من الغارات ، وتخلّصوا من الغزو ، وركنوا إلى القرار  
 والترف والدعة والغناء واللين والبطالة ، بعد أن أغدق عليهم خلفاء دمشق وأرادوهم  
 أن يحبسوا فى الحجاز وأن يبتعدوا عن الملك والسياسة وما لئليهما ، وأن يلتفتوا  
 عن طعنات القتال والحراب إلى طعنات المقل والحواجب .

فلتنظر ما كان منهم بعد هذه الراحة وهذا النعيم من شعر فى الغزل وقول  
 فى المرأة ! . .

## الفصل الثالث

### الغزل في صدر الإسلام

حسان بن ثابت - كعب بن زهير

ظهرت الدعوة إلى الإسلام فاشتغل العرب في الجهاد ، وقامت بين المسلمين والمشركين حروب في سبيل الدين الجديد اشتدت وعنف حتى شغلت الناس بأخبار المعارك والانتصارات ، واشترك الشعراء فيها كل يعزّز فريقه ببيانه وكل يرى عدوه بهجاء وينصر صديقه في مديح . فلم يكن ثمة مجال للهو أو الفراغ أو الاستماع إلى حديث القلب والنفس والعبث بالنساء والتحدث إليهن أو الالتفات إلى وصفهن . ولعل الذين كانوا يلهون ويعبثون كانوا يخفون اللهو والعبث ولا يصنفونه ، أو لعل الناس لا يجتمعون له ولا يرددونه تحريجاً من أثم وخوفاً من منع فقد حرّم الدين الجديد التحرش بالمحصنات ، لذلك سكت صوت الغزل في صدر الإسلام .

ولم تقتصر الحروب على الجزيرة العربية وإنما تعدتها إلى البلاد المتاخمة في أرض الشام والعراق فشغل الناس كذلك بأخبارها ، وأصبح الشعر في صدر الإسلام يدور على التفاخر بين خصوم الدين وأنصاره ، وكان في الخصوم عبدالله بن الزبير ، وكان في أنصاره عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت وكعب بن زهير . ولم يصلنا عن هؤلاء غزل إلا ما قبل في الجاهلية ، اللهم إلا حسان بن ثابت وكعب بن زهير ، والناظر فيه يحار في أسلوبه وفي زمان لقائه ونظمه .

أما حسان بن ثابت فقد نقل إلينا أنه أشرف على السنين حين اعتنق الإسلام ومن الصعب على رجل في هذه السن أن يسلك مسلكاً جديداً في القول ، بل من الصعب أن يبتعد عن أقواله الجاهلية وفيها افتتاح قصيدة بالغزل ؛ وخاصة إذا عرفنا أن الرجل لم يتغزل كغيره فلم ينبعث عن قلبه حب وإثما كان يخرج من شفتيه كلام يشبه الحرقرة والأسى والفراق والبين في تقليد وصناعة .  
ولعلّه تغزل قبل الأربعين فقال :

ترأت لنا يوم الرحيل بمقلتي      غرير بملتف من السدر مفرد<sup>(١)</sup>  
وجيد كجيد الريم صاف يزينه      توقد باقوت وفصل زبرجد<sup>(٢)</sup>  
كأنّ الثريا فوق ثغرة نحرها      توقد في الظلماء أيّ توقد<sup>(٣)</sup>

فهو من مدرسة الجاهليين في أوصافه المادية الحسية يجد في مقلتي صاحبه عيني ظي وفي جيدها جيد الريم أبيض صافياً . فلما جاء الإسلام لم يصنع شيئاً في باب الغزل وإنما دخل في خدمة الدين وناصح عن النبي في قصائد تملأ ديوانه .

وأما كعب بن زهير فقد تغزل في قصيده قبل الإسلام وبعده ، وقال فيهما شعراً نحب أن نعرضه هنا لنوازن بين قديمه وحديثه :

أرى أم شدّاد بها شبه ظلية      تطيف بمكحول المدامع خاذل<sup>(٤)</sup>  
أغنّ غصيف الطرف رخص ظلوفه      يرود بمعتم من الرمل هائل<sup>(٥)</sup>

(١) غرير : ظي - السدر : شجر النبق .

(٢) الريم : الظي الأبيض الخالص البياض - الزبرجد : الزمرد .

(٣) الثغرة : نقرة النحر فوق الصدر .

(٤) خاذل : تخلف عن أمه .

(٥) أغنّ : صغّر في صوته غنة لم يصف بعد - غصيف الطرف : فاطر الطرف - رخص : لين ، أي ظلوفة لينة لم تشتد ولم تقو - يرود : يذهب ويحيى أي يرضى - اعتم : تم - الهائل : الرمل الذي لا يهائم إذا وطئ .

وترنو بعينى نعجة أمّ فرقد تظل بواى روضة وخائل (١)  
وتفتر عن غرّ الثنايا كأنها أقاح تروى من عروق غلاغل (٢)  
فصاحبتة شبيهة بالطيبة ، رقيقة الصوت ، فاترة الطرف ، تضحك عن  
أسنان بيضاء كأنها الأقحوان قد روى عروقه المتغلغلة فى الثرى فنشر المسك  
والطيب ، وهذه أوصاف مادية حسية للعنين والصوت والأظلاف والثنايا  
والرائحة ، لا تختلف عن أوصاف الجاهلية فى شىء .

فلما قدم كعب على النبى أنشده قصيدته المشهورة وفى مطلعها غزل كذلك  
قال فيه :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متم إثرها لم يفد مكبول (٣)  
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول  
تجلو عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول (٤)  
وسعاد شبيهة بألم شداد فى صوتها وطرفها وأسنانها وريقها ، بل إنها اتخذت  
مصراعاً من القصيدة السابقة ، فالشاعر الإسلامى هو الشاعر الجاهلى نفسه  
لم يتغير ولم يتبدل ، بل هو لا يستطيع أن يخترع جديداً فى زمن قصير ،  
لذلك نحسب أن الغزل فى صدر قصيدته جاهلى أضاف إليه مديح النبى  
والدين ، وقال القصيدة فى حضرة النبى فسكت الناس عن غزلها وغفروا له  
خروجها على وقار الموقف بما تبع الغزل من أبيات فى التقديس والتعظيم ، ولولا  
هذا لصاعت القصيدة كلها ، كما ضاع غيرها وإطواها الناس كما طواها غيرها  
مكتفين ببلاغة القرآن .

(١) ترنو : تديم النظر - الروضة : يجتمع فيها الماء تنبت البقل ، ولا تسمى روضة إذا كان  
بها شجر - الخائل من الرمل : ما كان فيه شجر ونبت .

(٢) تفتر : تبسم - غر : يبيض - تغللل : دخل فى أمر لا يهتدى له غيره .

(٣) بانت : فارقت - متبول : أصيب بالهوى - متم : أذله الحب .

(٤) العوارض : الأسنان - الظلم : ماء الأسنان - معلول : سقى مرتين .

لذلك نام الغزل خلال صدر الإسلام ولم يستفق إلا بعد أن انتقلت الخلافة إلى دمشق وسكن الحجاز وأصابه الترف والدعة ، فهبّ بعد ركود وعاد سيرته في نحت التماثيل للنساء ، يصف اللواتي يراهن أو يصاحبهن ، ويرسم ما كان بينه وبينهن ، وينقل إلينا الأحاديث والسير ، فيخلق بجناحين من قوة الشعر الجاهلي الذي ورثه ومن بلاغة الكتاب الجديد وأسلوبه الرقيق ، وبذلك يصبح العصر الأموي وريثاً لأدبين : أدب الجاهلية وأدب القرآن ؛ وسرى ما يكون منه في الغزل وقد انصرف إليه الناس وأعجبوا به وسكنوا إليه .

## الفصل الرابع

### الغزل في العصر الأموي

الغزل في الحجاز : المدرسة البدوية

انتقل السلطان من الحجاز إلى الشام ، وأصبح المسؤولون يهتمون بالفتح والإدارة والسياسة والاجتماع والدعاية والحزبية ، وأصبح شغلهم الشاغل حصر هذا كلاله في دمشق دون الأقطار العربية الأخرى . فعمل معاوية بدهائه على جمع القرشيين من أطراف البلاد العربية ودفعهم إلى الحجاز لعلهم يجتمعون فيه فلا يخرجون على أن يؤمن لهم رزقهم ومتاعهم من بيت المال ، وبذلك حبست الطبقة الأرستقراطية من الحجازيين داخل حدود الحجاز ، وأصبحت تعيش في رخاء ويسر ، لا هم لها من أمر الحكم ولا شأن لها في الإدارة ، وإنما تستطيع أن تنصرف إلى نفسها وشؤونها الداخلية ، وتستطيع أن تعقد مجالس الطرب والسرور تقول من غير رقيب وتشهد ما تريد وتتغنى كما تريد بهوى النفس ولذة العين .

وأصبحت مكة والمدينة والطائف في غنى وبطالة وفراغ ، تلهو حين تريد وتعبث كما تريد ، فلا تقصر اللهو على زمان أو مكان ، وغدت هذه الربوع المقدسة مواطن الهوى والجمال ومدارس الغزل والحب . واتسع اللهو في البوادي وفي المدن ، فنشأ الغزل في كل مكان واستوى في قوله أهل البادية والحضر ، فكان من اتساعه مدارس ثلاث :

الأولى المدرسة البدوية ، وهي تعتمد في الغالب على الوفاء واليأس والأسى في الحب ، والثانية المدرسة الحضرية ، وهي تعتمد على الثروة والتنقل والظفر

في غالب الأحيان ، والثالثة المدرسة الصناعية ، وهي لم تؤت حظ الحب العميق ولكنها قلّدت أرباب المدرستين وأخذت منهما فنشأ غزل يصدر عن الشفتين لا عن القلب .

والذين بحثوا أمر الغزل وقسموه إلى هذه الأقسام نظروا فيما وصل إليهم من شعر وقصص وسير وأساطير ، عن سبيل كتاب الأغاني وغيره لم يقبلوها على أنها وثائق ثابتة وأحاديث صادقة وانتقلوا منها إلى تحليل الشعراء ونتائجهم . فاعتمدوا في تسمية الغزل العذري على نقل ما إليهم من فشل الشعراء إلياديين في أمانيتهم ويأسهم في حبهم ، فعاشوا يسعون وراء المرأة من غير نوال وينشدونها فلا يحصلون منها إلا على شبح الزيارة وبعض الحديث ، لأنها في حوزة غيرهم وهم عنها مبعدون .

واعتمدوا في تسمية الغزلين الإباحيين في الحضر على هذا الظفر الذي يصيبه الشعراء بمن يريدون وتقلبهم في مسالك الحب ومعارك العشق . وأما الغزل الصناعي في رأيهم فهو هذا الشعر الذي خلّفه رجال شغلوا بكل شيء إلا بقلبيهم وحبهم ولكنهم على ذلك قالوا شعراً في الغزل قلّدوا فيه غيرهم من الغزلين .

وقد وجد الباحثون من النقاد فوق هذا وذلك أن العذريين كانوا يصنّون في شعرهم عن شكوى ووجد وحرارة وإيمان وتقوى وعفة ، وتعطش ووفاء ، وحب وهجران . ورأوا أن الإباحيين يتخذون مواضيع الغزل عند النساء المتزوجات والحاجات الشريفات والزائرات العابرات ، وأنهم يعلنون هذا الأمر على رؤوس الملاء ويعلنون ما قد يقع بينهم وبينهن من غير رادع أو وازع سواء أكان ما قالوه صدقاً أم كذباً .

ولكننا حين نعرض لهذا الغزل كله سنجد شبيهاً قوياً بين هذه المدارس في التشهير والرغبة والأمنية ، سوى أن العذريين تمنّوا امرأة واحدة كما زعموا ، وأن الإباحيين تمنّوا أكثر من واحدة .

والشعراء العذريون الذين تمنّوا امرأة واحدة واشتهروا بها ، سموها وجعلوها موضع حبهم وغزلهم ، وقصّوا من أمورهم معها ومن أوصافها ما نجده عند كل واحد منهم في شبه غريب ؛ حتى لكأن سيرة كل من النساء تشبه سيرة زميلتها في موقفها وأوصافها ونخاتمتها . فهل كان هؤلاء الشعراء يقلّد بعضهم بعضاً ، كما يقلّد الجاهليّ أخاه في فخره وغزله ، أم كان الرواة يختلقون هذه السير ويخترعونها فتضيق براعتهم وينحصر خيالهم في هذه الصور الشعرية وهذه الأساطير المروية ؟ !

ومهما يكن من أمر فإننا وقعنا على شعر موروث نسب إلى شعراء بأسمائهم تغزلوا وقالوا في المرأة ، وروت الأغاني قصائدهم ، وقال النقاد في عفتهم وإباحيتهم ما قالوا فحكموا بالفجور على بعض ، وحكموا بالأخلاق الفاضلة على بعض ، وافترض أكثر النقاد وقوع هؤلاء الشعراء ، وبينوا أنسابهم ومواطن عيشهم ، وذكروا عشيقاتهم وما وقع لهم في الحب العفيف وغير العفيف . فقد أصبح هذا كله من تراثنا الأدبيّ ووجب علينا أن نتناوله بالتحليل والتعليق .

وهذا الشعر منشور في المصادر القديمة وأخصها الأغاني ، أعجب به الكتاب فتناقلوه لأنه قريب من الأسماع والقلوب ، فلا سبيل إلى إغفاله ، ولا سبيل كذلك إلى التحقيق العلميّ في تاريخ هؤلاء الشعراء وتاريخ هاته المعشوقات ، ولن نطمع في أدبنا العربيّ بما طمع به الغربيون من رفع الأسماء المستعارة وكشف الستار عن المعشوقات في آدابهم كما فعلوا في سير جوليا لامارتين وعشيقات موسى وفيثي وفيكاتور هوغو وروسو وفولتير وغوته وغيرهم .

وقد انتشر هذا الشعر الغزليّ لأنه كان قريباً من الأصوات والألحان فصلح للغناء والطرب فتنقل في دور اللهو وقصور الأمراء والأشراف وبلغ البيوت والخيم ، ومشى في البادية والحضر ، ولم يقتصر على الحجاز وإنما انتقل إلى الشام ،



فذكر صاحب الأغاني أن المغنين في المدينة ومكة سافروا إلى دمشق فغنوا الخلفاء قصائد الغزل هذه فأصبح الناس يتغنون بها وينشدونها ، حتى لقد أشبهت في عصرنا أغاني الطرب . ولعل الشعراء حين رأوا هذا الرواج رققوا من ألفاظ الغزل واختاروا من قوافيه ما يصلح للغناء والطرب . بل لعل خلفاء بني أمية شجعوا هذا الضرب من القول إنفاذاً لسياسة معاوية وانتصاراً لحطة الأمويين بعده في إبعاد الحجاز وأهله عن ميدان السياسة .

وقد أتاننا أن هذا الغزل راج في الرجال والنساء ، على اختلاف مراتبهم من الوقار والخفة والدين والطيش ، فأعجب به الفقهاء ورجال الدين كما أعجبت به العامة ، وأعجبت به النساء الحرائر والشريفات المثريات كما أعجبت به الإماء والقيان . وكم من امرأة مخدرة احتالت وعملت ليروج صيتها ويشتهر جمالها وتذكر في المجالس . وكم من قصة في الأغاني وغير الأغاني عن هاته النسوة متزوجات وغير متزوجات سعين في طلب الشعراء والاجتماع إليهم ، يعلنن رضاهن عن هذا الشعر ويبدن رغبتهم في مثله . وكم من أخبار راجت في مواسم الحج وانتقلت إلى الأقطار عن أمور العشاق وأساطير الحب والهوى ، وبالع الناس في نقلها على عادتهم فوصلت إلينا في شكل مخيف يصور الأخلاق وقد تدهورت والمثل العليا وقد تلاشت ، حتى لقد نسج الكتاب المعاصرون من لحمها برداً في التهويل والإسراف من غير أن يعرضوا لأصحاب هذه الروايات وناقليها بالتجريح والشك ، ومناقشة الأغراض التي دفعت الأصهباني وغيره على روايتها وجمعها ، ومن غير أن يعرضوا لأمر الدس على قريش وبني أمية وتصوير النساء في رغبة مزرية وشهوة مستيقظة لا تبالي بشيء ولا تعاب بأمر .

وما لا نكران فيه أن شعر الغزل يروج أبداً في كل عصر ومصر ، يستمع إليه الناس على اختلاف طبقاتهم بل لعلهم لا يستمعون إلا إليه في مجالسهم الخاصة والعامة . فالمرء يفخر في انتصار الشباب وفوز القلب إذا ما خلا إلى

نفسه أو صفيّة أو خلصائه ، ويزداد فخره كلما تقدمت به السن فبكى الشباب وما كان في الشباب ، ولعله كان آخر الناس في حلبة الحب يطلع ويغطيه غبار المتسابقين فيكسوه بثوب الفشل والخذلان ، ولا يقف هذا الفخر عند الشباب الجميل بل يتعداه إلى القبيح من الرجال يدعوه إليه مركب النقص — كما يقول علماء النفس — فإذا أتيح لك أن تجتمع إليه روى عجباً وقص طرباً من أخبار يتخيّلها ولعله كان يتمناها في شبابه بله شيخوخته .

كذلك الناس في قديمهم وحديثهم على اختلاف العصور ، وكذلك كان شعراء بني أميّة وفيهم من لا يسمو إلى جمال أو جلال ، وفيهم من جرفته منازع الحياة وشغله النضال في سبيلها ، فقد طرّقا هذا الباب وافتتحوا قصائدهم بذكر الحب كأنّ صدورهم تحبّ أن تستقبل أنباءه أول ما تستقبل وتستهل به القول أول ما تستهل ، فزادوا في ذلك على شغف الشعراء الجاهليين بالغزل وعكفوا عليه أكثر من أولئك ؛ لذلك كان غزل صادق وغزل صناعي كاذب ولعلنا نتبين بعض ذلك فيما نعرض له من غزل العصر الأمويّ في الحجاز وفي الشام والعراق .

### في الحجاز :

قلنا إن المدينة ومكة والطائف وما جاورها من الخواضر والبوادي كانت تردّد همسات الحب في الشعر وتتغنى بقصائده ومقطعاته ، وقلنا إن شعر البادية كان ينشد في الحاضرة ويطرب له الناس فيها ، فلنبداً بهذا الشعر لعلنا نتبين مدرسة هؤلاء البادين الذين تفرغوا للحب واكتفوا به غذاء لأرواحهم لا يعده عندهم غذاء ، فقد انصرفوا عن السياسة واستسلموا للدين الجليد ، وعاشوا في هذه الطبيعة التي تنحصر بين السماء والصحراء في حياة متشابهة ممّلة يضطر فيها

المرء إلى أن يتحدث وإلى أن يقضى الليل في السمر ، وإلى أن يخترع القصص أو ينقل ما سمع من أخبار في يومه ، فليس لديه حرب ولا نضال ولا سبي ولا نزاع ، وإنما في جعبته هذه الأخبار الجسيمة وفيها إقبال شاب على فتاة وتغزل شاعر بحبيبة ورواج هذا الشعر على ألسنة القبائل . فما هو إلا أن يغضب أهل الفتاة وينتصر لهذا الغضب حماة الأخلاق والدين ويقفوا حائلاً دون هذا اللقاء ويعملوا على منع الفتاة عن الفتى . وهنا يشتد القول ويهيج غرام الشاعر ويضطرم قلبه ، فتنهال القصائد والمقطعات ويولد الشاعر المحب وتولد العشقة المحبوبة .

ولعل هذه القصص والأشعار مخترعة كما بينا وبين الجاحظ<sup>(١)</sup> منذ القرن الثاني للهجرة ، ولعلها غير مخترعة فهي قد بلغت مسامع المؤرخين والأدباء القدماء فسجلوها وحق لنا أن نبسط فيها القول وأن نتناولها بالعرض . وهي عجيبة لا تكاد تخرج عن هيام الفتى بالفتاة ، ولا تزيد على الحرمان وشدة الوجد وقسوة البعد والموت في الحب ، حتى لكأنها سيرة واحدة تتكرر مع شيء من الاختلاف ، فهي مدرسة واحدة وطريقة واحدة ، إنها مدرسة جميل بثينة ومجنون ليلى وقيس لبنى وكثير عزة .

### المدرسة البدوية :

وقيل أن نعرض لهؤلاء الشعراء ومدرستهم نحب أن نبسط بين يديهم صورة لشاعر أحب فأخلص الحب ، وعشق فكان عذرياً ، واختص هو كذلك بمعشوقة واحدة هي « أميمة » ، وأظن أنك عرفت أنه عبد الله ابن المدينة وهو يمثل الغزل البدوي في العصر الأموي ، ولكنه لم يبالغ كما بالغت

(١) قال الجاحظ : « لم يترك الناس شعراً فيه ليلى إلا نسبوه إلى المجنون ولا شعراً فيه بثينة إلا نسبوه إلى جميل ولا شعراً فيه لبنى حتى أضافوه إلى قيس بن ذريح » .

مدرسة جميل بشينة ولم يسرف في هواه ، فلم يهتم في الأودية ولم يتبع الظباء ولكنه تغزل وصبر حتى بلغ الأمنية ، وتزوج من حبيبته « أميمة » وهو في هذا يختلف عن مدرسة جميل ، ولكنه يتفق مع هذه المدرسة في أنه نخص حياته وشعره بقول الغزل والنسيب ، بل جعل ديوانه كله في الغزل ، ويدور حول هذا الديوان شك واحد هو أن الرواة جمعوا فيه كل ما قيل في أميمة من غزل ونسيب ، فنحن لا ندرى مبلغ الصحة في نسبته إلى ابن الدمينه أو نسبة بعضه إليه ، وكل الديوان من السهل اللطيف ومن رقيق الغزل .

قال من قصيدة في ديوانه :

|                               |                               |
|-------------------------------|-------------------------------|
| ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد | لقد زادني مسراك وجداً على وجد |
| أن هتفت ورقاء في رونق الضحى   | على فن غص النبات من الرند     |
| بكيت كما يبكي الوليد صباية    | وحزناً وأبدت الذي لم تكن تبدي |
| وقد زعموا أن الحب إذا دنا     | يمل وأن البعد يشقى من الوجد   |
| بكل تداوينا فلم يشف ما بنا    | على أن قرب الدار خير من البعد |
| على أن قرب السدار ليس بنافع   | إذا كان من تهواه ليس بلذى ود  |

فالصبا تحمل إليه الذكرى وتهيجه ، والورقاء على غص النبات تبكيه ، والناس يزعمون أن الحب إذا دنا يمل وأن البعد يشقى من الوجد ، فتداوى بالبعد والقرب ولكن ذلك لم يجده نفعاً لأن الحب غير ودود . ولعل هذه الأبيات من أرق ما سمعنا في هذا العصر ، فهي أسى وحزن ودموع ، وهي ذكرى خالصة وحث على الوفاء وليس فيها وصف للمحبة أو لقاء معها .

وقد استحسّن القدماء والمغنون قوله في أميمة ومطلعها :

قفي يا أميم القلب نقضى لبانة ونشك الهوى ثم افعلى ما بدا لك  
ويقول فيها :

هويت ولم تهوى وكنت ضعيفة فهذا بلاء قد بليت بذلك

وأذهب غضباناً وأرجع راضياً      وأقسم ما أرضيتني بين ذلك  
يقولون : ذرها واعتزلها وإنما      تساوى ذهاب النفس عند اعتزالك  
أرى الناس يرجون الربيع وإنما      ربيعي الذي أرجو زمان نوالك  
أبيني أفي يمني يديك جعلتني      فأفرح أم صيرتني بشمالك ؟  
لئن ساءتني أن نلتني بمساءة      فقد سرتني أني خطرت ببالك  
فالعاشق المولته يذهب غضبان ويرجع راضياً والمعشوقة لا تصنع ما يرضيه  
وما يشفي ألم نفسه ، والناس كلهم على أن يهجرها ولكن كيف يفعل وهي النفس  
والحياة ، وهو سعيد بأنها تملك قياده وأنها تفكر فيه . وهذا لون جديد من الغزل  
ابتعد عن الأوصاف المادية الحسية فشبهها بالنفس والربيع ورضى منها بأن تملكه  
بيمين أو شمال على أن يكون عندها مقرباً وإليها محبباً .

وشبيه بهذه الرقة قوله :

فوالله ما أدرى أكل ذوى الهوى      على ما بنا أم نحن مبتليان  
وإنا لمشهوران مؤتمر بنا      بلقيان من لا نشهى ظفران  
ولنا لمن حيتين شتى وإننا      على ذلك ما عشنا للنتقيان

أو قوله فيها :

خليلي زورا بي أميمة فاجلوا      بها بصرى أو غمرة عن فؤاديا  
فلان لا تزورا بي أميمة تعلمما      غداة غد أن لا أنا لكما بيا !

وهنا يتساءل العاشق أكل المحبين يتشابهون أم ابتلى الله عبد الله وأميمة بهذا  
العذاب ، فهما لا يلتقيان . ويسأل بعد ذلك رفيقيه أن يجلوا بصره فيزورا أميمة  
عنه وإلا فهو منذ الغداة في الأموات . وهذا نهاية في العشق والهيام والصباية  
والوجد لم يشف من خلاله جسد ولم تظهر فيه أمنية حسية أو وصف مادي .

ويطول بنا المقام إذا ما أردنا أن نورد هنا أبيات الغزل فكل ديوانه

مستحسن مختار يجدر نقله والتعليق عليه ، ولكننا عرضنا لابن المدينة لكى  
نصل إلى الحكم بأن في العصر الأموي شعراء تفرّدوا في الغزل بوحدة وأخلصوا لها  
كما تفرّدت مدرسة جميل ، ولكنهم لم يجنّوا ولم يهيموا على وجوههم ولم تسر  
بين القبائل سيرة عشقهم وهواهم على شكل مفجع قاس كما وقع لأصحاب جميل .  
فكيف كانت هذه المدرسة ؟

ولد جميل بن معمر في قبيلة قضاعة وكانت تسكن الحجاز ، ونشأ في أسرة  
رفيعة القدر عظيمة المال واسعة الثراء ، وقد جمع الشاب إلى هذا الغنى جمال  
الحلقة فعاش مفتوناً بنفسه مزهوّاً بقومه حتى جمعت الظروف ببشينة وهي قريبة له  
يلتقى نسبهما في أحد الجلود . وكانت هذه الفتاة تعيش على شئ من رقة الحال  
وقلة المال ، وهي فيما وصف الواصفون على قدر من الجمال .

وتروى كتب الأدب أن اجتماعهما أول مرة كان على خلاف وحادٍ بينهما  
إلى الأبد ، فالرواة والشاعر نفسه متفقون على أنه تبادل معها السباب وانتهى  
السباب إلى لقاء فحبّ فوجد . وذاع هذا الوجد على لسان جميل وعرفت أسرة  
الفتاة ما كان من شعره في بشينة فنعوها منه ، وزاد المنع في ضرام الحب ،  
بل لقد انتهى به إلى الوله حتى قر رأيهم على زواجها من رجل دميم الحلقة قليل  
الجاه والنسب ، ولم ينفع في جميل لوم الأهل والصحاب فلبث يجتمع بها وتجتمع  
به على رغم الزواج .

ولإذا شئت أن تعرف مبلغ العشق فاسمع قوله :

حلفت يميناً يا بشينة صادقاً فإن كنتُ فيها كاذباً فعميتُ  
إذا كان جلد غير جلدك مسني وباشرنى دون الشعار شريتُ  
ولو أن راقى الموت يرقى جنازتي بمنطقها في الناطقين حييتُ  
فهو يقسم على الود ويحلف على العهد ويتمنى الموت للكاذب أنه لا يريد  
غيرها ولا يخونها ؛ ولو أنه رقى بصوتها ميتاً لعاش . وهذا أثرها في نفسه ،

وهذا حبه الصادق البريء يصفه بقوله :

لا والذي تسجد الجباه له      مالى بما دون ثوبها خبر  
ولا بفيها ولا هممت به      ما كان إلا الحديث والنظر  
ويقول كذلك :

خليلان لم يقربا ريبة      ولم يستخفا إلى منكسر  
فهو يحبها حباً عفيفاً لا يقرب ريبة ولا يستخف إلى منكسر ، ولا بهم بفيها ،  
ولكنه بعد ذلك يقول :

ألم تعلمى يا عذبة الريق أننى      أظلل إذا لم أسق ريقك صادياً  
فهو يتمنى هذا الريق ويلبث على عطشه حتى ترويه بقبلة .

وقد اجتمع على جميل ثقافة الشعر وهيب الحب فجعل منه شاعراً غزلاً على طراز رفيع . فقد نقل النقاد أنه كان راوية هذبة بن خشرم وكان شاعراً وراوية للحطيفة المشهور ، وأنه أخذ يحفظ هذا الشعر الفخم ويقلده في أسلوبة حتى نبغ من قلبه فيض العشق فساقه إلى غزل فاق فيه شعراء عصره . وقد وازن النقاد بينه وبين عمر بن أبى ربيعة وقالوا إنهما اجتماعاً وتناظراً فكانت النتيجة فحولة في جميل وجزالة في صنعته الشعرية لم يرها النقاد عند عمر ، ورأوا في عمر بساطة وسهولة ليست عند جميل ؛ ذلك لأن جميلاً بدوى وعمر حضرى . وغريب من بدوى أن يرق في وصف ما يلقاه حتى يقول :

|                                |                                 |
|--------------------------------|---------------------------------|
| يكاد فضيض الماء يخذش جلدها     | إذا اغتسلت بالماء من رقة الجلده |
| وإنى لمشتاق إلى ريح جيبها      | كما اشتاق لإدريس إلى جنة الخلد  |
| لقد لا منى فيها أخ ذو قرابة    | حبيب إليه في ملامته رشدى        |
| وقال : أفق حتى متى أنت ناسم    | بشينة فيها قد تعيد وقد تبدى     |
| فقلت له : فيها قضى الله ما ترى | على وهل فيها قضى الله من رد !   |

وهنا يصف رقة الجلد وطيب الرائحة ولوم الأصحاب وينتهى إلى قضاء الله وقدره . ثم يقول فيها :

|                                |  |
|--------------------------------|--|
| هي البدر حسناً والنساء كواكب   | وشتان ما بين الكواكب والبدر                  |
| لقد فضلت حسناً على الناس مثلما | على ألف شهر فضلت ليلة القدر                  |
| عليها سلام الله من ذى صباية    | وصبّ معنى بالسواوس والفكر                    |
| أبيكى حمام الأيك من فقد إلفه   | وأصبر؟ ما لي عن بثينة من صبر !               |
| ومالى لا أبكى فى الأيك نائح    | وقد فارقتنى شخنة الكشح والخصر <sup>(١)</sup> |
| يقولون : مسحور يحنّ بذكرها     | وأقسم ما بي من جنون ولا سحر                  |

وهذا غزل جديد فى بعض صوره ، فهو يجعلها بديراً بين الكواكب وفضلها على الناس كتفضيل ليلة القدر على ألف شهر وبعث إليها سلام الله . ثم ذكر الحمام النائح لفقد أليفه ، وعاد إلى صور الجاهلية من دقة الجسد والخصر وإصابة الجنون والسحر . وهذا كما قلنا يجمع ثقافة الجاهلية وثقافة القرآن والإسلام ، فقد أخذ عن النابغة قوله « كأنك شمس والمولوك كواكب » وأخذ عن القرآن : « ليلة القدر خير من ألف شهر » وأخذ سائر المعانى من بكاء الحمام والسحر والرقى والجنون عن الجاهليين السابقين :

ويقول فى قصيدة أخرى :

|                                |                            |
|--------------------------------|----------------------------|
| أرى كل معشوقين غرى وغيرها      | يلدان فى الدنيا ويغبتان    |
| وأمشى وتمشى فى البلاد كأننا    | أسيران للأعداء مرتهان      |
| أصلى فأبكى فى الصلاة لذكرها    | لى الويل مما يكتب المملكان |
| ضمنتُ لها ألا أهيّم بغيرها     | وقد وثقت منى بغير ضمان     |
| ألا يا عباد الله قوموا لتسمعوا | خصومة معشوقين يختصمان      |
| وفى كل عام يستجدّان مرة        | عتاباً وهجراناً ثم يصطلحان |

(١) شخنة - دقيقة - الكشح : ما بين السرة ووسط الظهر .



يعيشان في الدنيا غريبين أينما أقاما وفي الأعوام يلتقيان  
وجميل في هواه شبيه بالعشاق قبله وبعده حين يظنون أنهم وحدهم المذبذبون  
في الأرض وأن غيرهم في هواه سعيد ، حتى ليخيل إليه أنه وبشينة مقيّدان  
يصبحان أسيرين ويمسيان مرتين للعادات والتقاليد ، يفرق بينهما الناس وتفصل  
بينهما الحياة ، وهو على هواها مقيم لا يصل بينه وبينها إلاّ العتاب والخصام  
والهجر ، فما يصطلحان إلا ليختصما ، فهما غريبان في الدنيا لأنهما أحبا  
وأخلصا . وهذا شعر رقيق تأثر بالإسلام حتى ليذكرها في صلاته ويخاف الملكين ،  
ويستنجد بالناس عباد الله . ونحن نظن أن هذا الشعر حبيب إلى القلب قريب  
إلى الأذن ، فكأنه من شدة البساطة نثر تحدّه القافية يسيل في كل أذن  
ويستلطفه كل سمع .

وقد خطّ جميل في العصر الأموي خطة الحزن في غزله كما خطتها من قبله  
كثير من شعراء الجاهلية فأصبح في شعرنا الغزلي كلّ لون من اليأس والبؤس  
يسيران مع الأجيال ، فيتنقل العاشق من هجر إلى هجر ومن حرمان إلى حرمان ،  
يقضى نُهره قلقاً ولياليه أرقاً وهو مع ذلك على الوفاء والعهد ، فيقول :

|                             |                            |
|-----------------------------|----------------------------|
| ويكون يوم لا أرى لك رسالةً  | أو نلتقي فيه على كآشهر     |
| يا ليتني ألقى المنيّة بغتة  | إن كان يوم لقائكم لم يقدر  |
| أو أستطيع تجلّداً عن ذكركم  | فيفيق بعض صباي وتفكرى      |
| لو قد تجن كما أجن من الهوى  | لعذرت أو لظلمت إن لم تعذر  |
| والله ما للقلب من علم بها   | غير الظنون وغير قول الخبر  |
| لا تحسبني أنى هجرتك طائعا   | حدث لعمرك رائع أن تهجرى    |
| فلتبكىني الباكيات وإن أبح   | يوماً بسرّك معلناً لم أعذر |
| يهواك ما عشت الفؤاد فإن أمت | يتبع صدأ صدائك بين الأقبر  |

فهو يجد الحياة في قربها والممات في بعدها ؛ بل هو يعلن عجزه عن الصبر  
وضججه من الهجر ويصارحها بأنه مضطر إلى الانقطاع عنها غير راض به ،  
وأنه حافظ للسّرّ ما عاش فإذا مات دفن سرّه معه .

وهي أبيات رقيقة كذلك فيها هوى قاتل وصبر زائل وجنون وموت ، وهذا  
أقصى ما وصل إليه العشق في صدر العصر الأمويّ ، ولم يبلغه الجاهليون ،  
فقد كان الغزل عندهم قصير النفس محدود الأوصاف . وإذا كان امرؤ القيس  
قد بكى قليلاً فإن الشعراء بعده سبّحوا في دموعهم — إذا صح التعبير —  
ولعائها حياة العرب ضيق وجفاف ورقباء وقرب الدار من الدار وكثرة الحساد ،  
وقد وقع مثله في الآداب الغربية ، حين كانوا يعيشون مثل ما عاش العرب .  
ولكنهم حين اتسعت الحواضر وغفلت الأعين أبدعوا واخترعوا ، ولم يتح مثل  
ذلك لزملائهم من الغزلين باللغة العربية . ولعلك لو قرأت شعر التروبادور في  
فرنسا وشعراء الأرياف في أوربة لآمنت معنا بأن جيلاً لم يبالغ ولم يسرف .

ولم يقع هذا الوفاء من جميل لقلة النساء وضعف إلامهن به ، فقد عرض  
عليه أكثر من مرة أن ينسى وأن يحبّ من جديد ، ولكن الرواة شاءوا أن  
يكون عفيفاً وأن يختلف في ذلك عن عمر بن أبي ربيعة . فلقد روي أن امرأة  
ثانية عرضت عليه أن تقع من قلبه موقع بثينة فأشدد يقول :

|                             |                              |
|-----------------------------|------------------------------|
| أبئن إنك قد ملكت فأسجحي     | وتخلدي بحظك من كريم واصل     |
| فلرب عارضة علينا وصلها      | بالجد تخلطه بقول الهازل      |
| فأجبتها في القول بعد تسرّ : | حبّي بثينة عن وصالك شاغلي    |
| لو كان في صدري كقدر قلامه   | فضلاً وصلتك أو أتتك رسائي    |
| ويقلن إنك قد رضيت بباطل     | منها فهل لك في اجتناب الباطل |
| ولباطل ممن أحبّ حديثه       | أشهى إلى من البغيض الباذل    |
| ليزلن عنك هوى ثم يصلني      | وإذا هويت فما هوى يزائل      |

ورسم لنا حديث العواذل وما يقمن به من سعاية وشاية للتفريق بين  
العاشقين ، وسجّل لنا جوابه وعنفه ووفاءه في رقة وصدق ليثبت لها خلوده في  
الحب ورضاه بكل ما تفعل . ثم يصور لنا موقفها منه فيقول :

وأطعت في عواذلا فهجسرتني وعصيتُ فيك — وقد جهدتُ — عواذلي

وهذه موازنة لطيفة بين موقف العاشق وموقف المعشوقة تدل على إثارة  
وتضحية يمثلهما شعر جميل في هذا الموقع فيغيظ أعداءها وأعداءه ، ويصف  
هذا الغيظ كأجل ما يصفه شاعر لعصره :

يععضن من غيظ عليّ أنا ملأً ووددتُ لو يععضن صمّ جنادلٍ  
ويقلن إنك يا يثين بخيلة نفسي فداؤك من ضنين باخلٍ

ولعلنا أصبنا بعد هذا الذي روينا من شعر جميل ما نريده من صور الغزل  
الأمويّ في الحجاز ، فهو يصف العاشق ، وما يقع له من هجر معشوقته ،  
وما يضطرب فيه من أسى ويأس ، وما يبلغه من وشايات ، وما يعترض سبيله  
من حواجز وموانع في الوصول إليها ، وما يبذله من عهود في الوفاء والإخلاص ،  
وما يعيش فيه من أمل اللقاء من غير أن يعرض لرسم الجسد بصورة مادية حسية  
مفصلة كما رأينا عند الشعراء الجاهليين .

ولقيس بن ذريح قصة شبيهة بقصص هذه المدرسة ، فقد رأى لبني في  
بعض أسفاره فأحبها وأرادها زوجة له ، فنتعه أبوه من ذلك خوفاً على ثروته أن  
تنقل إلى قوم غير قومه ، فسعى قيس عند الحسين بن عليّ — وكان أخواه في  
الرضاعة — ورجاه أن يتوسط بين أبيه وقوم لبني ففعل الحسين وتمّ الزواج ،  
وأصبح قيس ولبنى سعيدين هانئين . ولكن أمّ قيس نعتت هذه الهناءة  
فسعت عند ابنها في الطلاق لغيرة أصيلة في نفوس كثير من الأمهات ، وحرّ  
الفتى في إرضاء أبويه أو إغضاب زوجته ، ونزل أخيراً عند إرادتهما بعد الذي  
رأى من تعاسة أبويه بهذا الزواج وشقائهما برؤية هذه الزوجة .

ولم يكده قيس يطلّق لبني حتى فقد هناءته وقراره ، فأصابه ذهول فوجد صارخ ، وراح يبكي ويتحسّر ، حتى مرض وأشرفت به العلة على الموت ، فلما رأى أبواه ذلك أغروا به صحابه وفتيات حيه أن يسعوا إلى تسليته لعله يسلو فلم ينفع معه دواء أو حيلة . وقال يصف حاله :

لقد خفتُ أن لا تقنع النفس بعدها      بشيء من الدنيا وإن كان مقنعا  
وأزجر عنها النفس إذ حيل دونها      وتأبى عليها النفس إلا تطلعا

وزاد مرضه وألمه حين وقعت الواقعة وتزوجت لبني غيره ففقد بذلك عقله وصبره ، وراح يتلمّس موضع خباثتها ، ويمرّغ خده على ترابها ويبكي وهو ينشد :

إلى الله أشكو فقد لبني كما شكا      إلى الله فقد الوالدين يتيم  
يتيم جفاه الأقربون فجسمه      نحيل وعهد الوالدين قديم  
بكت دارهم من نأيمهم فهلت      دموعي فأى الجازعين ألوم  
فإني وإن أجمعتُ عنك تجلداً      على العهد فيما بيننا لمقيم  
وإن زماناً شئت الشمل بيننا      وبينكم فيه العدا لمشوم  
أفى الحق هذا أن قلبك فارغ      صحيح وقلبي في هواك سقيم

وقيس يشتد في الشقاء لفراقها حتى ليحسّ باليتم فهي عنده أبوه وأمه ، وقد نحل جسمه وبكت داره وانهملت دموعه ، وهو ما يزال على العهد مقيم يلعن الزمان المشت المشوم ولو أنه يتساءل عن قلبها وهواها وإن كانا يشبهان قلبه وهواه ! . . وهذه معانٍ في الشكوى والبكاء تشبه ما أصاب جحيلاً عند بعد بثينة .

وظل قيس يرسل الشكوى ويظهر البلوى وينادى ويسترحم حتى بلغ به اليأس والهوى مبلغاً يصدّع منه القلب ويسيل الدمع فيقول :

أقضى نهارى بالحديث وبالمنى  
نهارى نهار الناس حتى إذا بدا  
لقد رسخت فى القلب منك مودة  
أحال على "الهم" من كل جانب  
ألا إنما أبكى لما هو واقع  
وقد كنت أبكى والنوى مطمئنة  
وأهجركم هجر البغيض وجبكم  
ويجمعنى والهم بالليل جامع  
لى الليل هزّنى إليك المضاجع  
كما رسخت فى راحتين الأصابع  
ودامت فلم تبرح على الفواجع  
فهل جزعى من وشك ذلك نافع  
بنا وبكم من علم ما الين صانع  
على كبدى منه شئون صوادع

وهو فى هذا الشعر كما فى غيره يرسم همّه وأرقه وذكره وعمق مودته وعظيم  
فاجعته وطويل بكاه، ويرثى لنفسه وهو بهجرها وقلبه ينفطر أسى وكبدته تتصدع  
لفراقها وذلك رقيق يغص بالتفجع والتوجع والشكوى والتلهف شبيه بشعر قيس  
فى لبنى أو المجنون فى ليلى ، ولو تركت القصيدة من غير نسبة إلى قائليها ما نرى  
أنك تلوذ بغير واحد من أصحاب هذه المدرسة ، وربما عمى عليك الأمر فنسبتها  
إلى أحدهم ثم رأيت أنها ألصق بالثانى ، وذلك لقرب الشعر عند هؤلاء فى الغزل  
بعض من بعض ، حتى لا يسكاد يتميز أحدهم فيه إلا حين يذكر المرأة المعنية  
باسمها فيعرف صاحبها بها . بل لعله لضيق الخيال عند صانع هذا الشعر وهذه  
القصص كما قلنا صنع القوالب متشابهة ، ولكن ذلك كله لا يغير من رأينا فى  
أن هذا الشعر قد قيل وفى أنه يمثل الغزل أجمل تمثيل ، فهو عدتنا فى البرهان  
على رقة الشعر فى العصر الأموى وفيض الشعور والعواطف فى قائليه .

وأما قيس بن الملوّح ، فهو من بنى عامر ، وقد نسجت حوله كذلك قصة  
زائفة فى كتب الأدب تعدّ فى جملة أساطير الغزل لهذا العصر الأموى . وهى  
تتلخص فى أن قيساً وليلى كانا طفلين یرعیان البهم فلما كبرا امتنعت عليه ليلى  
لتشيبيها بها كما حدث لجميل ، فزاد هذا فى حبه وأولع الأهل فى التفريق بينهما  
على عادة العرب ، فأصاب قيساً وله وهيام فجئون ، وراح يضرب فى أنحاء

البادية بحثاً عن ليلاه ، وسعياً وراءها حتى اشتهر اسمها وخاف أهلها مغبة  
الفضيحة فشكوه إلى السلطان فأهدر دمه . والمحجنون لا يبالي بذلك سادر في  
غوايته وحببه حتى قضى نحبه في الرمال .

ومن شعره في ليلي قوله :

وإني لأخشى أن أموت فجأة وفي النفس حاجات إليك كما هيا  
وإني لينسي لي لقاءك كلما لقيتك يوماً أن أثبتك ما بيا  
وقالوا به داء عياء أصابه وقد علمت نفسي مكان دوايا  
وهو تصوير رائع لحال المحب حين ينقضى اللقاء وقد ظن أنه يستطيع أن  
يقول لمحبوته شيئاً وقد نسي أن يقول ، وهو مريض يعرف مكان الداء خائف  
من أن يبوح لها بسر حبه . ويقول فيها كذلك :

أعدّ الليالي ليلة بعد ليلة وقد عشتُ دهرًا لا أعدّ الليالي  
أراني إذا صليت يمت نحوها بوجهي وإن كان المصلي وراثيا  
وما بي إشراك ولكن حبها كعدد الشجأ أعيا الطبيب المداويا  
أحب من الأسماء ما وافق اسمها وأشبهه أو كان منه مدانييا  
هي السحر إلا أن للسحر رقية وأنى لا ألني لها الدهر راقيا  
وهذا واقع معروف في العشاق يرسمه الشاعر رسماً صميماً في انتظار اللقاء  
وعدّ الليالي والاستئناس بالأسماء القريبة من اسمها . ويبالغ في وصف عفته  
فيقول :

تكاد بلاد الله يا أم مالك بما رحبت يوماً على تضييق  
تنوق إليك النفس ثم أردّها حياء ومثلي بالحياء خليق  
ولو تعلمين الغيب أيقنت أني حبيب وأنى للحبيب مشوق  
أروم سلو النفس عنك وما لها إلى أحد إلاّ إليك طريق

فهو يضرب في البلاد حتى لتضيق به ويسعى وراءها ويمتنعه الحياء من اللقاء

ويتمنى النسيان ، ولكن نفسه تأبى إلا أن تهيم بها وتشتاقها . وهذا مثل من الشوق عنيف ، ويقول فيها كذلك :

ولم أر ليلى بعد موقفه ساعة      ببطن منى ترى بخار الخصب  
ويبدى الحصى منها إذا قذفت به      من البرد أطراف البنان الخصب  
فأصبحت من ليلى الغداة كناظر      مع الصبح فى أعقاب نجم مغرب  
ألا إنما غادرت يا أم مالك      صدئى أينما تذهب به الريح يذهب

وهو يلحق بها إلى الحج فيراها تلقى الجمار بمنى فتظهر أطراف البنان الخصب ، ولكنه لا يجزو على الحديث واللقاء فيودعها غداة ذلك اليوم كوداع النجم المغرب ، وقد خلقت صدئى يحمله الريح إليه فى كل مهب . وهذا شعر قريب من شعر جميل وشعر ابن ذريح فى أساليبه ومعانيه لا يكاد يختلف عنهما فى شيء . وهو يشبههما كذلك فى الحديث عن الوشاة والتائم حين يقول :

وخيرك الواشون أن لن أحبككم      بلى وستور الله ذات المحارم  
أصد وما الصد الذى تعلمينه      شفاء لنا إلا اجتراح العلاقم  
حياء وبقياس أن تشيع نيمة      بنا وبكم ، أف لأهل التائم

ونرى أن طابع الشعر عند قيس هنا هو الخجل والحياء وخوف الافتضاح ، ومع ذلك نظم فى ليلى أكثر مما نظم غيره ، وسار شعره وأحبه الناس لرقته وحفته جميعاً ، ونحن لا نجد له فضلاً من رقة أو عمقا فى الوصف . وقد ألصق الناس به كل شعر فيه ذكر ليلى وهيام وجنون وذهاب مع الهوى ، فارجع إلى الأغاني تجد منه مجموعة غريبة عجيبة لا تعدو فى صورها ما روينا وما نقلنا .

وكثير بن عبد الرحمن شاعر حجازى كذلك من شعراء الدولة الأموية ، ويكنى بأبى صخر ، وقد اشتهر كذلك بامرأة واحدة حتى أضيف اسمه إليها فسمي كثير عزة كما اشتهر أصحابه : جميل ببينة والمجنون بابلى وقيس بلبنى . وأكثر شعره فى التشبيب بها . وقد ذكر النقاد أنه أحد عشاق العرب وأن شعره يسبق السحر ويغلب الشعر — كما قال فيه عبد الملك بن مروان — وقد كان شيعياً غالباً فى التشيع . ولكن أكثر النقاد على أن شعره متكلف فى الحب ، فهو

أدخل عندهم في مدرسة الغزل الصناعي ، ولكننا لم نر رأيهم في ذلك ، وقد وازنا بين شعره وشعرهم فما وقعنا على اختلاف في الأسلوب والأداء ، ووجدنا أن قصته شبيهة بقصص الغزليين العذريين ، وحين نبسط القصة والأشعار تدرك السبب الذي دفعنا إلى جعله في المدرسة البدويّة لا في مدرسة جميل .

وقصة حبه تتلخص في أنه مر بنسوة وهو يرعى الغنم فأرسل إليه عزة وهي صغيرة تسأله عن بيع بنسيئة فأعطاهما كبشاً وأعجبته ، فلما رجعت إليه امرأة بدراهمه سأل عن الصبيّة التي أخذت منه الكبش وألحّ في ذلك حتّى برزت إليه كارهة ، ثم أحبته أشدّ من حبه لها ، وأحبها حتّى الجنون .

وكان كثير دميماً بشعاً مضحكاً لمن يراه ، وكان قصيراً ضعيف العقل يتخذ الناس سخرية وهزواً ، وهو لا يحس ولا يدري ، فلم يكن ذكي القلب صافي الطبع رقيق الحس ، ومع ذلك وفقّ في شعره واعترف له النقاد بذلك حتّى قرنه أكثرهم بقيس لبنى وفضلوه على شعراء المدرسة البدويّة والحضريّة معاً . وكان الرجل يتردد بين البادية والحاضرة ويتصل بقصر دمشق بمدح الأمويين ويتملقهم وهو شيعي . ويقول النقاد إنه كان كاذباً في شعره مدحه وغزله ، ولكنه كان مجدداً بارعاً فيه ، ولعلّ الذي دفعهم إلى هذا التعميم كذبه في مدحه . وقد قال محمد بن سلام الجمحي : كان كثير يتقول ولم يكن عاشقاً ، وكان جميل صادق الصباية والعشق . وقال عبيدة : كان جميل يصدق في حبه ، وكان كثير يكذب في حبه .

وليس يعنيّنا هنا صدق كثير أو كذبه كما يعنيّنا تفوّقه في الغزل وإجادته فيه ، فلقد أرانا دموعه تتساقط أكثر من مرة :

إذا قيل مهلاً بعض وجدك لا تشد بسرّك لا يسمع حديث فيرفع  
أبت عبرات من سجوم كأنه غمامة دجن استهلّ فيقلع<sup>(١)</sup>

(١) سجوم : أي دموع من عين كثيرة السمع - غمامة دجن : بحابة كثيرة المطر - استهلّ : اشتد انصبابه .



وقد أشهدنا أنه عفيف في حبه فيقول :

ضنين ببذل السرِّ سمح بغيره      أخو ثقة عفت الوصال سميذع<sup>(١)</sup>  
 أبي أن يبت الدهر ما عاشن سرِّكم      سليماً وما دامت له الشمس تطلع  
 وأصبحت مما أحدث الدهر خاشعاً      وكنت لريب الدهر لا أتخشع<sup>(٢)</sup>  
 وعروة لم يلق الذي قد لقيته      بعفراء والنهدي ما أنفجع  
 فهو كتوم للسرِّ عفيف في الوصال محافظ على العهد كثير الوجد حتى  
 ليريد أن يسابق الشعراء العشاق . وقد روى أحد الأدباء أن كثيراً حج في إحدى  
 السنين وحجت عزة من غير أن تعلم بوجوده ، فأمرها زوجها بابتئاع سمن لطعامه ،  
 فجعلت تدور الخيام حتى دخلت عليه وهي لا تعلم خيمته ، وكان يبرى سهماً  
 فأصبح يبرى لحمه وهي تمسح الدم فأنشد يقول :

خليلي هذا رسم عزة فاعقلا      قلو صيكما ثم انظرا حيث حلت  
 ومسا تراباً كان قد مس جلدها      وبيتاً وظلاً حيث باتت وظلت  
 ولا تياسا أن يمحو الله عنكما      ذنوباً إذا صليتما حيث صلت  
 وما كنت أدري قبل عزة ما البكا      ولا موجهات القلب حتى تولت  
 وكانت لقطع الحبل بيني وبينها      كناذرة نذراً فأوفت وحلت  
 فقلت لها يا عز كل مصيبة      إذا وطئت يوماً لها النفس ذلت

وهي قصيدة رقيقة جميلة تبين عن حب وتفصح عن هوى ، فتقدس التراب  
 الذي حلت فيه الحبيبة وتستهن في سبيلها بكل مصيبة ، والشاعر يبكى ويتوجع  
 ويخاف الفراق . وهو على ذلك وفي أمين يقول فيها :

لا تغدرن بوصل عزة بعدما      أخذت عليك موثقاً وعهودا  
 إن المحب إذا أحب حبيبته      صدق الصفاء وأنجز الموعدا

(١) سميذع : كريم يخفى .

(٢) عروة بن حزام : عاشق عفراء وهو من الشعراء المشهورين بالصبوة والغزل - والنزد :  
 هو عمرو بن عجلان عاشق هند بنت كعب وهو جاعل يضرب بعشقه المثل .

الله يعلم لو أردت زيادة في حبّ عزة ما وجدت مزيداً  
رهبان مدين والذين عهدتهم يبيكون من حذر العذاب قعوداً  
لو يسمعون كما سمعت كلامها خرواً لعزة ركعاً وسجوداً  
وما يفتأ الشاعر يدلي ببراهين الوفاء وشدة الحب ، فهو مفتون بها وهو يعتقد  
أن الرهبان لو سمعوا كلامها لخروا لها ركعاً وسجوداً . ثم يقول مكنياً عن  
عزة بسعدى :

وكنّت إذا ما زرت سعدى بأرضها أرى الأرض تطوى لى ويدنو بعيدها  
من الخفريات البيض ودّ جليسها إذا ما انقضت أحذوثة لو تعيدها  
منعمة لم تلق بؤس معيشة هي الخلد في الدنيا لمن يستفيدها  
هي الخلد ما دامت لأهلك جسارة وهل دام في الدنيا لنفس خلودها  
فتلك التي أصفيتها بمودتي وليدأ ولما يستبن لى نهودها  
وقد قتلت نفساً بغير جريرة وليس لها عقل ولا من يقيدها<sup>(١)</sup>  
فكيف يودّ القلب من لا يودّه بلى قد تريد النفس من لا يريدّها  
ألا ليت شعري بعدها هل تغيّرت عن العهد أم أمست كعهدي عهداً  
إذ ذكرتها النفس جنّت بذكرها وريعت وحنّت واستخف جليدُها<sup>(٢)</sup>

وهذه الزيارة التي أطوى لها الأرض في لقاء آنسة جميلة بيضاء فاتنة الحديث  
ترى السعادة والخلود بقربها ، قد أصفيتها الودّ وهي صغيرة ، ولكنها قتلت  
نفسى بغير جرم ، فلماذا ذكرتها جننت بذكرها وقلّ صبرى وتعجلدى .

وهكذا ترى أن الشاعر غزل قوى يقع من المدرسة البدوية موقع العقد ،  
لكنه ينحطّ في شعوره الرقيق وسلاسة أسلوبه وجنون معانيه الغزلية عن مدرسة  
جميل ، وما نرى إلاّ أنه يلحق بهم لولا أنه ابتلى بالسياسة وحكم عليه أن يقول في

(١) عقل : دية - أقاد القاتل بالقتيل : أى قتله به ، والقود : القصاص وقتل القاتل بدل  
القتيل .

(٢) الجليد : من الجلد والصلابة ، وهنا بمعنى استرخى صبرها وقوتها .

أبواب أخرى من الشعر اضطرتته إلى جزل القول وبلغ الكلام ، وما امتازوا عليه إلا بتفردهم في الغزل وانصرافهم إليه بجسمهم وعقلهم ولسانهم ، وكان كثير موزع الأغراض والنوازع يخص قلبه بشيء وعقله بأشياء ، فكان منه هذا الغزل البدوي وحسبه .

وأما يزيد بن الطثرية فهو كذلك شاعر غزل صريح لين يمثل شعر البداوة أجمل تمثيل ، وقد كان يحيا حياة عبث وهو وغزل وحب ، يتمتع بالحياة في سداجة وبراءة ، لذلك لا نجد في غزله ما تستكره روايته ، وكان يزيد جميل الوجه حسن الصورة رقيق اللفظ عذب الحديث ؛ ففتن النساء وافتتن بهن ، فقال في وصفهن ، وكان شريفاً عذرياً في غزله كما زعموا ، وقد روى كتاب الأغاني من حبه وهواه ما يحسن الرجوع إليه في حذر وشك ، ولكنه على كل حال يبرهن على صلة الرجل بالنساء وغزله فيهن .

ولقد حام حول يزيد حديث في الحب شبيه بتلك الأحاديث التي حامت حول جميل وقيس وكثير ، وقيل إن الرجل عشق ومرض حتى أشرف على الموت وحتى يشس الأطباء من شفائه ، وقيل إنه كان يحتال في زيارة صاحبه ويلج حتى تدخلت الدولة والسلطان ، فحيل بينه وبين صاحبه « وحشية » ولكن الشاب والفتاة لم يأخذوا بهذه الألوان من الحجب بل تجاوزاها إلى الزيارة والاجتماع ، حتى لقد أصابه الأذى في سبيلها فما وقف وما تراجع ، شأنه في ذلك شأن زملائه أصحاب الهوى العذري ، ولكنه زاد عليهم أنه تغزل بالنساء وعقرهن كما فعل امرؤ القيس من قبل . وقد كتب يزيد إلى وحشية يقول :

أحبك أطراف النهار بشاشة وبالليل يدعوني الهوى فأجيب  
لئن أصبحت ريح المودة بيننا شمالاً لقدماً كنت وهي جنوب

وقال فيها كذلك :

بنفسي من لو مرّ برّد بنائه على كبدي كانت شفاء أنا مله  
ومن هابني في كل شيء وهبته فلا هو يعطيني ولا أنا سائله

وهو شديد الحياء هنا كثير الخوف ، على أنه يعرف علة كبده ويعرف دواءه  
فلا هو يطلب ولا هي تمنحه الشفاء . ويقول في غزله كذلك :

|                            |                           |
|----------------------------|---------------------------|
| نازعها غم الصبا إن الصبا   | قد كان منى للكواعب عيدا   |
| يا للرجال وإنما يشكو الفتي | مرّ الحوادث أو يكون جليدا |
| بكرت نوار تجدد باقية القوى | يوم الفراق وتخلف الموعودا |
| واربّ أمر هوّى يكون ندامة  | وسبيل مكرهة يكون رشيدا    |

فهو صابر بجلد على هواهن ولكن الفراق يقطع منه القوى ، ومع ذلك  
يفخر بعطف النساء وجهن له ، ويعاتبهن ويصرمهن فيقول :

|                                  |  |
|----------------------------------|--|
| ألا بأنى من قد برى الجسم حبه     | ومن هو موموق إلى حبيب                  |
| ومن هو لا يزداد إلا تشوقاً       | وليس يرى إلا عليه رقيب                 |
| ولانى وإن أحسموا على كلامها      | ونحالت أعاد دونها وحروب <sup>(١)</sup> |
| لمن على ليلى ثناء يزيدها         | قواف بأفواه الرواة تطيب                |
| أليلى احذرى نقض القوى لا يزل بنا | على التأى والهجران منك نصيب            |
| وكوفى على الواشين لداء شعبة      | كما أنا للواشى ألدّ شغوب               |
| فإن خفت ألا تُجكّمي مرة القوى    | فردّى فؤادى والمسزار قريب              |

فهى قد برت جسمه بحبها وهى حبيبة مع ذلك إليه ، يزداد بها شوقاً وإليها  
كلفاً ، ولكن دونها الرقباء والأعداء والحروب . وهو يسيّر بذكرها القوافى  
ويطلب إليها أن لا تسمع للوشاة ، فإذا أرادت صرمه فلتردّ إليه فؤاده .

ويزيد لا ينحطّ عن مستوى شعراء البادية فى وصفه وحبه وعواطفه القوية  
إلى شجاعته وقوته واستعداده للثأر واعتداده بشعره وشبابه .

وأما عبيد الله بن قيس الرقيّات فقد اشتهر بالغزل حتى قيل إنه لقّب  
بالرقيّات لأنه شبّ بثلاث اسمهن رقيّة . وعاش أخا سفر يتقلب فى البلاد ،

(١) أحى : حرم ومنع .

فرحل إلى الحزيرة وفلسطين وسجستان فما روى ، وأقام في ترف ودعة ، وعرف  
بغزله في أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك ، وهي ابنة عبد العزيز بن مروان ،  
وقيل إن الغزل وقع من نفسها موقعا حسنا ووقع من زوجها موقع الغضب ،  
وقد نلنا من قبل ما كان للنساء من شغف في أن يذكرن في الشعر وأن يتناولن  
المديح . وبلغ من عدوان الأمويين عليه أنهم أهدروا دمه فاجأ إلى بيت في  
الكوفة عرف أن صاحبه هي « كثيرة » بعد أن آوته ونصرته فأحبها وقال فيها :

كوفية نازح محلها لا أم دارها ولا صقَبُ  
والله ما إن صبت إلى ولا إن كان بيني وبينها نسبُ  
إلا الذي أورثت كثيرة في الـ قلب وللحب سورة عجبُ  
لا بارك الله في الغواني فما يصحبن إلا لهن مطلبُ  
فهن ينكرن ما رأين ولا يعرف لي في لداقي اللعب

وهو يكره أن يعلمها بحبه ولكنه لا ينكر أن يبين عن عواطف الحب وميله  
إليها ، وهو في ذلك لا يحسن هوى ولا يصف أجزاء جسمها ولا يرسم حديثا دار  
بينه وبينها ، فهو يعرف طباع الغواني وما يحملن من ثقل ومطلب نفع .  
وقد ألح على عبيد الله الشيب فوصف موقف النساء منه :

بكرت على عواذلي يلحينني وألومهنه  
ويقلن شيب قد علا لك وقد كبرت فقلت إنه  
إن العواذلي لمنني ولن أطيع أمورهنه  
فما أفيد من الغنى والله سوف يهينهنه

ويقول في الشيب ويتوجع منه :

ذهب الصبا وتركت غيتيه ورأى الغواني شيب لميتيه  
وهجرني وهجرتهن وقد عشت كرائمها يظفن بيه

إذ لمتى سوداء ليس بها وضح ولم أفجع بإخوته

وهذا الشيب قد خاف منه شعراؤنا جميعاً منذ الجاهلية حتى العصر الحاضر ،  
فقد بكوا على الشباب وما كان في الشباب من ذكريات أصبحت جميلة مقدسة ،  
وعبيد الله يلح في ذلك :

|                     |                   |        |
|---------------------|-------------------|--------|
| ألا هزأت بنا قرش    | ية يهتز           | موكبها |
| رأت بي شيبة في الرأ | س منى ما أغيبها   |        |
| فقلت : ابن قيس ذا   | وغير الشيب يعجبها |        |
| رأني قد مضى منى     | وغضبات صواحبيها   |        |
| ومثلك قد لموت بها   | تمام الحسن أعيبها |        |
| لها بعل غيور قا     | عد بالباب يحجبها  |        |
| يزاني هكذا أمشي     | فيوعدها ويضرها    |        |
| ظلمت على نمارقها    | أفديها وأخلبها    |        |
| أحدثها فتؤمن لي     | فأصدقها وأكذبها   |        |

وهذه صورة في الغزل جميلة سبق إلى الاعتداد بمثلها امرؤ القيس حين  
راح يفخر بعديد ضحاياه من النساء « فمثلك حبلى قد طرقت ومريض » ،  
ولكن الجديدي فيها هو الزوج الغيور الذي يتوعد زوجه ويضرها ، والبعل  
أمير المؤمنين الوليد ابن عبد الملك والزوجة أم البنين ، ويدعى الشاعر بعد هذا  
كله أنه يروى حلماً ليس غير ، ولكنه يوغل في الحلم حتى ليقر به فتحسبه  
واقعاً :

|                    |                  |
|--------------------|------------------|
| أتني في المنام فقد | ت هذا حين أعقبها |
| فلما أن فرحت بها   | ومال على أعدبها  |
| شربت بريقها حتى    | نهلت وبت أشربها  |

وبت ضجيعها جدلاً      نَ تعجبني وأعجبها  
وأضحكها وأبكيها      وألبسها وأسلبها  
أعاجلها فتصرعني      فأرضيها وأغضبها  
فكانت ليلة في النو      م نسمرها ونلعبها  
فأيقظنا منادٍ في      صلاة الصبح يرقبها  
فكان الطيف من جنه      نية لم يلد مذهبها  
يؤرقنا إذا نمنا      ويبعد عنك مسربها

ومهما يكن من أمر هذا اللقاء سواء أكان في المنام أم في الحقيقة فهو لقاء  
حى ، بلغ به ابن قيس ذروة الإبداع في التصوير ، فكانه « حلم ليلة صيف »  
أو هو حلم الشباب رسمه الشاعر كما يرسم الشعراء الإبداعيون في الغرب ،  
لا نكاد نفرق بينه وبينهم في صدق التصوير وما يقع بين العاشق والمعشوقة من  
سمر ولعب وغضب ورضا يقف سيله أذان الصبح . وقد ارتفع الشاعر بالشعر  
الغزلى إلى منزلة سامية تجعلنا في الغزل العالمى وبين صفوف شعرائه ، فهو في  
عبارة رقيقة سهلة رشيقة خفيفة الوزن عظيمة الوقع على السمع عذبة المعانى ،  
بدأت بالحلم اللذيذ وانتهت باليقظة الحاسمة .

ولسنا نعرض هنا للأسباب التى جعلت اللقاء حلماً بين الشاعر والحنينة ،  
فذلك في باب السياسة وصلات الشاعر بالخليفة لعصره ، وذلك ألصق بكتاب  
آخر في الموضوع يستطيع القارئ أن يعوج فيه على ديوانه المطبوع فيجد فيه  
بغيته وأمنيته . وقد ظهر لنا أن عبيد الله كان في تعايره وموسيقاه وصدق ألفاظه  
وصراحة كلامه قريباً من المغنين حبيباً إلى العامة تطرب له وتتذوقه قراءة وغناء .

## الفصل الخامس

### المدرسة الحضرية في الحجاز والشام

#### في الحجاز :

أظن أننا جمعنا من أخبار الشعراء البادين وغزلهم ما ينفعنا في تصور ما كانوا عليه من تتبع للهوى وسعى وراء المحبوبة وهيام وشقاء وجنون ، وينفعنا كذلك في تذوق ما كان عليه شعرهم من رقة وسلاسة وبساطة وسداجة .

ولكننا الآن سننقلب إلى مدرسة جديدة تمتاز بالغزل المادى الواقعى ، ففيها استمتاع واقع وفيها قصص قصيرة وفيها حوار ، وفيها على هذا وذاك نماذج من الحياة الاجتماعية في الحضر ، إذا صدق الرواة وثبت ما نقل إلينا عن اللقاء والإغارة على البيوت والتخلص في الزيارة . والناس يعرفون أن عماد هذه المدرسة هو عمر بن أبى ربيعة وزملاؤه العرجى والأحوص والوليد بن يزيد . ولكننا نحب أن نجعل فيهم شاعراً مختلف النقاد في سيرة حياته واختلفوا في ولادته وشك العلماء في وجوده . والقارئ يعلم أننا نتسلم النصوص كما وصلت إلينا فنعمل فيها التحليل لتتصور فن القول كما وجد أو كما اخترعه الذين أرادوا وجوده فقلدوا الصورة والسيرة .

هذا الشاعر هو وضاح اليمن ( عبد الرحمن بن إسماعيل ) ولن أزيدك معرفة في ولادته ونسبه لأن القدماء لم يتفقوا على أمر فيه ، ولكننى أنقل إليك أنهم رَوَوْا من سيرته في الأغاني وغير الأغاني ما يتلخص في أنه ورد مواسم العرب يستتر وجهه خوفاً من العين وحذراً على نفسه من النساء بحماله . ورووا أنه كان يهوى امرأة من أهل اليمن اسمها « روضة » ، وزعموا أنها كانت تبادله



الحب وأن هذا الحب ذاع في الناس ، فلما خطبها إلى أهلها أبوا عليه ذلك كما رأينا عند جميل وابن ذريح والمجنون وكثير ، ولكن هذه القصة تنهى بمرض الفتاة وانقلاب العشق إلى رحمة بها وعطف عليها ليس غير .

وروى الأدباء قصة هواه بأم البنين زوج الوليد بن عبد الملك وهي فاتنة ساحرة ، فلما سافرت إلى الحج وقف الغزلون عن التعرض لها إلا وضاح اليمن ، وكانت بيته وبينها علائق حب كما زعموا انتهت بلقاء وانتهى اللقاء بأمر غريب وهو دخول خادم الخليفة عليها ، فأخفت الشاعر في صندوق ، فلما علم الخليفة بالأمر تصنع الجهل واستهداها الصندوق واحتفر بئراً ألقاه فيها وهال التراب عليه وانطوى خبر الشاعر فيما يتناقل الرواة .

هذه هي القصص التي نقلوا عن حياة الرجل . وأما شعره الذي رويوا خلال هذا العبت وهذا اللهو فهو شعر لين سهل لطيف مسرف في السهولة ، حتى ليتقرب من النثر . وسنضرب الأمثال لتقفك على صورته . قال في « روضة » صاحبه :

|                     |                                     |
|---------------------|-------------------------------------|
| إني تهيجني إلى      | ك حمامتان على فن                    |
| الزوج يدعو إليه     | فتطاعما حب السكن                    |
| لا خير في نث الحديد | ث ولا الجليس إذا فطن <sup>(١)</sup> |
| فاعصى الوشاة فإنما  | قول الوشاة هو الغبن                 |

وهذه معان معروفة عند الغزلين حين يدعوهم إلى الذكرى والصبابة ، ولكن له شعراً يذهب فيه التقاد إلى الإعجاب أى مذهب ويرون فيه نواة الشعر التمثيلي حين يقول في روضة :

|                          |                     |
|--------------------------|---------------------|
| قالت : ألا لا تلجن دارنا | إن أبانا رجل غائر   |
| قلت : فإني طالب غرة      | منه وسيني صارم باتر |

---

(١) نث الحديث : أذاعه وأفشاه .

|                       |                           |
|-----------------------|---------------------------|
| قلت : فلاني فوقه ظاهر | قالت : فإن القصر من دوننا |
| قلت : فلاني سابح ماهر | قالت : فإن البحر من دوننا |
| قلت : فلاني غالب قاهر | قالت : فحول إخوة سبعة     |
| قلت : فلاني أسد عاقر  | قالت : فليث رابض بيننا    |
| قلت : فربي راحم غافر  | قالت : فإن الله من فوقنا  |
| فأت إذا ما هجع السامر | قالت : لقد أعيينا حجة     |
| ليلة لا ناه ولا زاجر  | فاسقط علينا كسقوط الندى   |

وهذا حوار طويل لم تقع على مثله عند شعرائنا ، فقد نسجوا في مثله ، ولكنهم لم يوغلوا ولم يسرفوا ، ولم يخطر لهم أن يحترعوا الأسئلة والأجوبة وبسط المشاكل وحلها ، والحرب في كل الجبهات : فوق الجدران وفي البحار وأمام الأسود . والغريب أنه يحارب الأب والإخوة ولا تغضب ، كأنه يصنع رواية « روميو وجولييت » في القرن الأول الإسلامي ، يحارب أهلها وتنضم إليه . وقد كفانا النقاد مؤونة النقد فقالوا بخروجها على العصر واختراع الحوار .

وهو يقول في « روضة » كذلك :

|                          |                         |
|--------------------------|-------------------------|
| إليكم إن شالاً أو جنوباً | ألا ليت الرياح لنا رسول |
| ويبلغنا الذي قلتم قريباً | فتأتيكم بما قلنا سريعاً |
| فأصبح من تذكركم كثيباً   | ألا ياروض قد عذبت قلبي  |
| وأبدى في مفارقة المشيبا  | ورقني هواك وكنت جلدًا   |
| ولا قرب إذا كانت قريباً  | أما ينسبك روضة شحط دار  |

وهذه المعاني مبسطة مطروقة ، لكن أسلوب الأداء رقيق بسيط لا تجد فيه اللفظة المتكلفة أو العبارة النائية ، فالريح رسول العشاق منذ كان الغزل العربي ، وعذاب القلب وطروق الشيب وقلة الجلد وبعد الدار وقرها كان ذلك كله عماد القول واسطة الغزل .

ويقول في أم البنين شعراً لا يختلف في الرقة عن شعره في « روضة » :

أصحوت عن أم البند ين وذكرها وعنائها  
وهجرتها هجر امرئ لم يقل صفو صفائها  
قرشية كالشمس أشرق نورها ببهاها  
زادت على البيض الحسان بحسبها ونقائها  
لما أسكرت للشباب بوقتعت بردائها  
لم تلتفت للذاتها ومضت على غلوائها

فهى قرشية كالشمس فى بهائها ، حسناء نقيه ، رائعة الشباب مزهوه  
بما تملك من جمال وفتنة .

ولكن الذى صنع الأبيات والقصة فى أم البنين قصر عن الاحاق بقصائد  
ابن قيس الرقيسات فيها فلم يصنع كثيراً ولا قليلاً ، ولعله كان يهدف إلى هجاء  
الخلفاء الأمويين بهذا الغزل ووضعها موضع الحب فسقط دون الغاية والهدف .  
وقد أوردنا من شعر وضاح اليمن لنمهد القول فى الزيارة والحوار والقصة إلى سيد  
الغزل فى العصر الأموى .

وعمر بن أبى ربيعة زعيم الغزل فى الأدب العربى كله ، ذلك لأنه أتاحت له  
أسباب الحياة فى اللهو والغزل والعبث . فقد كان غنياً مترفاً ، وكان متفرغاً لهذه  
الحياة الهادئة العاصفة . معاً ، بعيداً عن السياسة وما تجلبه من مشاغل ومتاعب ،  
فلبث راضياً قانعاً يلهو مع أصدقائه ويعبث مع أحبابه ، وقد عاش عمره موكلاً  
بالجمال يتبعه ، ما ينتهى من هند إلا لينصرف إلى دعد والثريا وغيرهن ينعم  
بالنظر وغير النظر ، وحظه من حياته عين تبصر خير ما يرى الناس ولسان ينشد  
أروع ما يقع عليه الناس ، فإذا به صتاجة مطرب فى الحديث عن المرأة

وفى حديثه معها ، وإذا هو سيجلٌ لهذا الحوار الذى كان يدور بينه وبينهن كما تحفظه ذاكرته أو تخترعه مخيلته .

لحق عمر بالنساء وشبَّ بهن وتغنى بجمالهن فى موسم الحج وغير الحج ، خلال النهار والليل ، يخرجن للطواف حيناً أو إلى حاجاتهن حيناً أو للتندر والعبث أحياناً ، فانتقطع لهن شطراً من عمره ، ورسم القرشيات وغير القرشيات فى ألوان مادية حسية تكاد — إذا صدق — تجلونا بجانباً من النساء بالترفات فى القرن الأول الإسلامى .

ولعلنا لا نسرف حين نقول إنه تخصص فى فن الغزل كما يعكف الدارسون اليوم على فن واحد يتقنونه ويلحسون عليه ، حتى لقد اتخذ سبيله إلى كل فتاة جميلة مرت بمكة أو أقامت فيها فشبَّ بها وشهرها .

ويكفى أن تقرأ ديوانه لتعرف أسماء النساء اللواتى تغزل بهن : زينب بنت موسى الجهمجية ، وابنة عمها نعم ، والثريا بنت على بن عبد الله ، وليلى بنت الحارث البكرية ، ورملة بنت عبد الله بن خلف الخزاعية ، وفاطمة بنت محمد ابن الأشعث الكندية ، وغيرهن من نساء يطول سرد أسمائهن مما أبقاه الزمان فى ديوانه .

وقد روى الأغاني أنه عاش ثمانين فتك منها أربعين ونسك أربعين ، ولعله تاب فى أخريات أيامه ، وقد اضطره المشيب والعجز إلى أن يسكت خلال سنواته الأخيرة ، بعد أن تحدث خلال عدة آلاف من الأبيات عن هواه فى ديوان كله غزل بالنساء وحوار معهن ورسائل بينه وبينهن ، وأكثرهن من ذوات الحسب والثراء ، وهن مزهوات بجمالهن يحبين أن يسمعن أثره فى شاعر تخصص بالغزل ، كما نحب اليوم أن يصنع فينا رسام ماهر صورة بارعة نحفظ بها على الشباب والمشيب للذكرى والتاريخ .

وغزل عمر فيهن رقيق جميل نحب أن نعرض بعضه هنا لنصل إلى حكم في الشعر والشاعر ، فقد وصف النساء مجتمعات وفردى ، ونقل ما يكون بينهن من حديث وحوار ووصف لإشارتهن واجتماعتهن . قال في هند :

فلما تواقفنا وسلّمت أشرقته وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا  
تباهن بالعرفان لمّا عرفننى وقلن امرؤ باغ أسكل<sup>(١)</sup> وأوضعا  
وقربن أسباب الهوى لتسيم يقيس ذراعاً كلّمنا قسن لإصبعها

فوصفهن في اجتماعهن وفي مقابلهن له وفي عونهن للمحب ، وقد سار ذراعاً حين مشين لإصبعاً . وهذا أول ما تقع عليه العين في غزلنا من نقل أوضاع النساء والالتفات إلى رسمهن ، ثم يصف هذا السعى منهن في تقريب أسباب الهوى :

قالت « ثريا » لأترب لها قطف قمن نحى أبا الخطّاب عن كذب  
فطرن حدّاً لما قالت وشايعها مثل التماثيل قد موّهن بالذهب

فنحن نتصور طلب ثريا وزميلاتها في لقاء عمر وقد اشتهر صيته وذاع عنه أنه يصف كلّ من يلقاه ، فلا يهتم بالمحبة نفسها فحسب وإنما يرسم اللّوحة كاملة فيها تماثيل عدّة وبينها صاحبته ، وقد عودنا الشعراء قبله أن يرسموا تماثلاً واحداً في كثير من التفصيل والإلحاح . وهو ينقل إلينا حديثهن وما دار بينهن من كلام :

قوى تصدّى له ليبصرنا ثم اغمزيه يا أخت في خفر  
قالت لها : قد غمزته فأبى ثم اسبطرت تمشى على أثرى  
قالت لها أختها تعاتبها لا تفسدن الطّواف في عمر  
وهنا نقف على ما كانت عيون النساء تصنع حين يصعب الكلام ،

(١) أكل : من الكلال وهو الإعياء - أوضع : أسرع .

ونعرف رقة الحديث بين النساء وخدمة بعضهن لبعض في مطالب الهوى وأغراض  
العشق :

ولم يكتف عمر برسم اللقاء وإنما وصف لباس النساء وجواهرهن :  
يرفلن في مطرفات السوس آونة وفي العقيق من الديباج والقصب  
تري عليهن حلل الدر متسقا مع الزبرجد والياقوت كالشهب

فكانه يصور لنا الحياة المدنية واللباس وأنواعه والحلى وأضرابه ؛ ويرسم  
ذهاب النسوة إلى السباحة فيتبعهن بقوله ، وقد عسى هنداً بنت الحارث :

ولقد قالت لحارات لها ذات يوم وتعرّت تبترد :  
أكما ينعتني تبصرنني عمركن الله أم لا يقتصد !  
فتضاحكن وقد قلن لها : حسن في كل عين من تود  
حسداً حملنه من أجلها وقد عى كان في الناس الحسد

فهو قد بالغ في جمالها فراحت تسأل صديقاتها عن مبلغ الصديق في وصفه  
وهي مزهوة فرحة ، فأجبتها كما تجيب النسوة لكل زمان ومكان ، مدفوعات  
بالحسد كما قال عمر . وما يفتأ ينقل لنا حديث الفتيات فيما بينهن بعد أن عرفت  
صديقتها بأمر زواجه :

خبروها بأنني قد تزوجت فظلت تكاتم الغيظ سرا  
ثم قالت لأختها ولأخرى جزعاً : ليتني تزوج عشرا  
وأشارت إلى نساء لديها لا ترى دونهن للسرا سراً :  
ما لقلبي كأنه ليس مني وعظامي إخال فيهن قرا  
من حديث نمي إلى فطيع خلت في القلب من تلظية جمرا

وهذا أبلغ وصف للمرأة المنكوبة بزواج حبيبها من غيرها ، فهي تدافع

عاطفة الحب إلى عاطفة الانتقام وعدم المبالاة ، ثم ما تلبث أن تخونها العاطفة فتعترف لصديقتها بما أصابها من وقع النيا فقد هدّ جسمها وزعزع قلبها :  
وقد وصف عمر بن أبي ربيعة في غزله ما يقع عليه نظره من المرأة :

إني رأيتك غادة خصانة ريت الروادف عذبة مبشرا  
مخطوطة المتين أكمل خلقها مثل السبيكة بضة معطارا  
كالشمس تعجب من رأي ويزينها حسب أغرّ إذا تريد فخارا  
ويقول كذلك :

فيهن طاوية الحشا جيداء واضحة الجبين  
بيضاء ناصعة البيا ض كدرة الصدف الثمين

وهو في ذلك كأجداده من شعراء الغزل في الجاهلية يحبّ الحضور الدقيقة والأرداف البارزة ، والبشرة البيضاء والعنق الطويل والجبين الواضح ، والنفم العذب ، والرائحة العطرة ، ويستعمل الألفاظ نفسها والعبارات عينها ، فكأنه يستوعب في ديوانه ما جاء عند القدماء ويزيد عليه ما اخترعه لنفسه في هذا الباب .

وأجمل ما اخترعه عمر في غزله — بعد اللوحات الكاملة للنساء وحديثن — هو ذلك الحوار والتمثيل والحكاية والقصة وتفصيل الزيارة . فقد حجت ابنة محمد ابن الأشعث العراقية وسمعت بشاعرا فأرسلت إليه واجتمعا ، وخرج الشاعر بوعد في زيارتها بالعراق ، وقصيدة جميلة فيها يقول :

عجبا لموقفنا وموقفها وبسمع تريها تراجعتنا<sup>(١)</sup>  
ومقالها : سر ليلة معنا نعهد فإن البين فاجعتنا<sup>(٢)</sup>  
قلت : العيون كثيرة معكم وأظن أن السير مانعتنا  
لا بل نزوركهم بأرضكم فيطاع قائلكم وشافعتنا

(١) التريان : مثني ترب وهي الخدينة .

(٢) نعهد : نأخذ عليك العهد والميثاق في الوفاء والحفاظ على الحب .

قالت : أشيء أنت فاعله هذا لعمرك أم تخادعنا  
بالله حدثت ما تؤمله واصدق فإن الصدق واسعنا  
اضرب لنا أجلاً نعدّ له إخلاف موعده تقاطعنا<sup>(١)</sup>

وهذا الشعر أقرب ما يكون للحديث والكلام لبساطته وسهولته وتصوير  
الواقع من غير تكلف أو تصنع ، فهي تقلق لبعده فيهدئ روعها بوعده ،  
وهي تخاف ما فطر عليه الرجال من كذب في مثل هذه المواقف وأخصهم  
عمر بن أبي ربيعة .

ولعل العراقية تعرف أنه سينقلب إلى غيرها فيعيد على مسمعها ما قال  
في كل موقف من مواقف غرامه ؛ فقد اجتمع إلى هند بنت الحارث المريّة  
وهي إحدى جميلات عصرها ، وقد مرّ بنا وصفه لها ، ونقل إلينا ما كان في  
الاجتماع من حوار :

ولقد أذكر إذ قلتُ لها ودموعي فوق خدّي تطرد  
قلت : من أنت؟ فقالت : أنا من شقّة الوجد وأبلاه الكمد  
نحن أهل الخيف من أهل منى ما لمقتول قتلناه قود  
قلت : أهلاً أنتم بغيتنا فتسمين فقالت أنا هند

وبراعة عمر في أنه يصور براءة النساء وسداً لجهن في مواقف الحب ، فهنّ  
سريعات التصديق كثيرات التهديد والوعد بقتل من يحبّهن فإذا هنّ بعد قليل  
قتيلات الحب والصبابة ، وما نظنّ أنهنّ يختلفن على أربعة عشر جيلاً عما رسمه  
الشاعر .

هذا تصوير قصير للقاء ، أما قصة اللقاء والزياره فشاعرنا يتبرع بها كذلك  
في كل حين ، ليرسم لنا كلّ ما وقع له فيقول في قصيدة طويلة بعد أن  
اجتاز الحراس :

(١) نعد له : أي نعد الأيام لحلوله حتى إذا أخلفت قاطعتك .



وكادت بمخفوض التحية تجهرُ  
وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسرُ  
— وقيت— وحولى من عدوك حضُرُ  
سرت بك أم قد نام من كنت تحذرُ؟  
إليك وما نفس من الناس تشعر  
كلاك بحفظ ربك المتكبر  
على أمير ما مكثت مؤمِرُ

فحييتُ إذ فاجأتها فتوكتهت  
وقالت وعضت بالبنان فضحتني  
أريتك إذ هنأ عليك ألم تخف  
فوالله ما أدرى أتعجيل حاجة  
فقلت لها : بل قادنى الشوق والهوى  
فقلت وقد لانت وأفرخ روعها :  
فأنت أبا الخطاب غير مدافع

\* \* \*

وأيقاظهم قالت : أشركيف تأمرُ؟  
ولما ينال السيف ثأراً فيثأر  
علينا وتصديةاً لما كان يؤثرُ؟  
من الأمر أدنى للخفاء وأستر  
ومالى من أن تعلم ما متأخرُ  
وأن ترجبا سرّاً بما كنت أحصرُ<sup>(١)</sup>  
من الحزن تدرى عبرة تتحذرُ  
كساءان من خز دمقس وأخضرُ  
أنى زائراً والأمر للأمر يقدرُ  
أقلنى عليك اللوم فالخطب أيسرُ  
فلا سرتنا يفسو ولا هو يظهرُ  
ثلاث شخوص : كاعبان ومُعصر<sup>(٢)</sup>

فلما رأت من قد تنبّه منهم  
فقلت : أباديهم فلما أفوتهم  
فقلت : أتتحقيقاً لما قال كاشح  
فإن كان ما لا بدّ منه فغيره  
أقصّ على أختي بدء حديثنا  
لعلّهما أن تطلبا لك مخرجاً  
فقامت كئيباً ليس فى وجهها دم  
فقامت إليها حرتان عليهما  
فقلت لأختها أعينا على فتى  
فاقبلتا فارتاعتا ثم قالتا  
يقوم فيمشى بيننا متنكراً  
فكان مجئى دون من كنت أتقى

والذى يعجبنا فى هذه القصيدة هو أولاً هذا الحوار الدقيق فى لقاء العشيقّة

(١) السرب : الطريق — أحصر : من الحصر وهو الضيق ، والمراد هنا سعة الحيلة فى الخلاص  
(٢) الكاعب : هى التى تهدئها — الممعصر : هى التى بلغت تمام الشباب وأدركت .

وما صنعت من خوف أول الأمر وما قالت من لوم ثم إيمانها بحبه ونزولها عند رغبته ، والحوار كذلك حين الفراق والخوف من تنبيه القوم وإظهاره الشجاعة وخوفها الفضيحة ونجدة الأخيتين وما دار من كلام في العتب ثم الرضا عنه . ويعجبنا كذلك هذه الألوان التي رسمها للمعشوقة ولأختيها وما كانتا عليه من لباس ، فلم ينس دقيقة من دقائق المشهد التمثيلي في القصة ، واستوعب كل ما مرّ به من ذكريات واقعية كما يزعم .

هذا وقد زاد الشاعر في غناه بساطة ألفاظه وسلاسة تعابيره وموسيقا قصيدته ، فكأننا نشهد ما وقع له وكأننا نتألم ونفرح فنتبعه حتى ينتهي إلى الخلاص ، شأننا في ذلك شأن القصص البارة التي تملك القلب ويؤمن بها العقل فيحسب أنه مضطر إلى أن يتبع ما فيها حتى يعرف ما كان من خير وما كان من شر .

وفوق ذلك كلّه فشاعرنا أول من غنى برسم عواطف المحبوبة وما يقع لها من حزن وفرح ، فهي مخلوقة تشاركه السرور والحزن يضطر إلى رسمها والاهتمام بها ليعرف ما كانت عليه حين اللقاء من لذة وحين البعاد من ألم ، وقد عودنا أكثر الشعراء قبله أن يهتموا برسم جسدها وجمالها وما يقع في نفوسهم من أثر ذلك . أما هو فعنى بها ورسمها ليغنى بنفسه آخر الأمر ويعظم من شأنه على كل حال ، ويصوّر انتصاره في الحبّ وكلف النساء به وحرصهنّ عليه وتكلفهنّ الألوان الخوف والتضحية في سبيله ، سواء أكان صادقاً فيما قال أم مخترعاً فيما غصّ به ديوانه .

ولن نسهب في الحديث عن عمر فنحن نستطيع أن نحصى صواحبه وأوصافهن وما كان بينه وبينهن ، وأن نصف ليااليه وأحاديثه عنهن وموضع ذلك من التاريخ أو القصة ، ولكن ذلك يطول ؛ فقد رسمنا نماذج منه تغنى فيما نرى عن استعراض الديوان كله وبسط الحياة منذ ولادة الغزل عنده حتى

توبته ! وإنما نريد أن نتحدث عن قرشي آخر سار على سبيله لنعرف أين بلغ من هذا السبيل .

ذلك هو العرجي ( محمد بن عبد الرحمن المخزومي ) وهو من أبناء عثمان بن عفان ، ومن بيت غني وترف ، وقد نسب إلى عرج الطائف فيما قالوا ، وعاش لاهياً عابثاً كما عاش عمر ، وتغزل أكثر ما تغزل في نساء مكة من الحرائر أو من الحواج من شريفات العرب ونبيلاتهن ، ووصف حياته اليومية كمرأة صادقة ، وكان شبيهاً بعمر في لين العبارة ووضوح اللفظ وقابلية شعره للغناء والإنشاد ، فلم يصنع شعره للغويين وأرباب المعاجم ، وإنما صنعه لنفسه وأصحابه وصواحيبه ، بل لعله صنعه للناس يتلونه ويتغنون به ويطربون عليه ، وقد وفق في ذلك كما وفق عمر فأصبح شغل الناس يشتركون في روايته رجالاً ونساءً من كل الطبقات والهيئات ، كأنما مكة والمدينة والطائف تتغنى بشعره وتنشده .

وأخبار حبه لأم الأوقص مشهورة ذائعة ، رواها كتاب الأغاني على شكل شبيهه بزملائه من شعراء الحجاز ، فقد احتال العرجي فلبس لباساً لأعرابي واجتمع إلى نسوة فبين أم الأوقص ، فلم تعرفه أول الأمر ، ولبت يتمتع بجمالها حتى إذا عرفته صاحبت : العرجي ورب الكعبة ، ووثبت نافرة ، فسترها أترابها وصرفته .

تغزل فيها فقال :

وتبسمت لي عن أغر مؤشّر      ظلم نمير بارد أنيا به  
بيضاء تنسجها الصبا في مشرق      حلّ القلوب الصاديّات حجاب به

فهو يصف الأسنان والريق ويباض البشرة مثل غيره من شعراء الجاهلية ، وهو يصف الشيب وموقعه من قلوب النساء فيقول :

إن رأيت روعة من الشيب صارت في قلداى مبينة كالشهاب  
تحت ليل بكف قابس نار اعتشاها بعارض من سحاب  
قلتُ : مهلاً فقد علمت أنأتى منك هذا وقد علمت جوائى  
ليس ناهى عن طلاب الغوائى وخط شيب به ودرس خضاب

ويتعرض للوشاة والحساد والرقباء ويبكى للحمام مثل خيره من الشعراء  
فيقول :

والله ما قربت قربى ولا نزحت إلا استخف إليها قلبه ظربا  
ولا دعت شجوها يوماً مطوقة إلا ترقرق ماء العين فانسكبا

ويصف الحزن والأسى للفراق ويرسم الحلى والأطواق والبرود :

كأنما الحلى على نحرها نجوم فجر ساطع أبليج  
تذود بالبرد لها عبرة جادت بها العين ولم تنشج  
مخافة الواشين أن يفتنوا لشأنها والكاشح المزعج  
وهو رقيق إذ يصف مواقفه مع النساء :

فن يفرح بينهم فغيرى إذ غدوا فرحا  
فهزت رأسها عجباً وقالت : مازح مزحا  
فيا عجباً لموقفنا وغيب ثم من كشحا  
تبعهم بطرف العيون حتى قيل لى افتضحنا  
فودع بعضنا بعضاً وكل بالهوى صرحا

وهذا شعر لطيف يرسم فيه الحوار والموقف ووداع الحبيبة بطرف العين ،  
وهو سهل بسيط يصلح للإنشاد والغناء . وهو يصف اجتماعه بالنساء فى صراحة  
فيقول :

فلا ثم شملى بعد ما شت حقبه  
بحور كأمثال الدمي قطف الخطي  
أمن العيون الرامقات ولم يكن  
فبت صريعاً بينهن كأننى  
يوسدننى جهم المرافق زانها  
يفدتننى طوراً ويضممن تارة  
يقلن ألا تبدى الهوى يستردننى  
لعمري لئن أبدين لى الوجد لئننى

بهن وذو الأضغان منهن جاهد  
لهون وهن المحصنات الخرائد  
لهن به عين سوى الصبح ذائد  
أخو سقم تحنو عليه العوائد  
جبايرها غصت بهن المعاضد  
كما ضم مولوداً إلى النحر والد  
وقد يستزاد ذو الهوى وهو جاهد  
بهن وإن أخفيت ودنى لواجد

فيصف لهو النساء حتى الصباح وهو صريع بينهن كأنه عليل تحنو عليه  
العائدات يتوسد منهم المرافق ، ويضممنه تارة ويفدنه تارة ، ويبعث فيه  
حيماً الهوى وهن محبات يخفى أمامهن الوجد وإن كان مشوقاً متيسماً ، وقد سبق  
ابن أبي ربيعة في صراحته الحسية وما كان له مع النساء . وهو يصف الحوار  
وينقله كذلك :

قالت : وهل كان ما زعمت من ال  
اسمعى أخت ما يقول وقد  
قالت لها : قد سمعت فاغتنمى  
قالت : فوالله لو بذلت لسه  
ولا هنأه حتى يشوب به  
هو الملول الذى سمعت به

وجد لنا أنت تحسن الجسدا  
أعرف أن قد تملأت جسدا  
منه الذى قال أخت إن فعلا  
ودنى مع الخلة أخت ما قبل  
وذا أراه لو دنا دخلا  
ولا أحب الشوابة المللا

وحوار النساء هنا في صدد العرجى والاستفادة منه وقضاء الوطر واغتنام  
الفرصة قبل ضياعها فهن يعرفن أنه ملول متقلب . وهو بذلك كله يمتدح نفسه  
ويجعلها موضع الحب ، والنسوة يسعين إليه فيصف حوارهن في شأنه .  
والعرجى يزور النساء كما يزور عمر سواء بسواء فيقول :

بجن قلبي بذكر أم الغلام  
 زينت لي شواكلي كلّ لحو  
 ربما مثلها تسديتُ وهناً  
 ثم نهيتها فهبت كسولاً  
 ساعة ثم إنها بعد قالت  
 أعلى غير موعد جئت تسرى  
 عدلني فقلت لا تعذليني  
 قد تجشمت ما ترين من الهو  
 فارعوت بعد نفرة نفرتها  
 وعلى الباب ذى الشقيقة سعدى  
 كلماً صفقت وثبن إليها  
 يتسوّكن قبل كلّ طعام  
 حبذا هنّ حيث كن من الأر  
 يوم قالت لنا : بلجوا بسلام  
 ذات لوث من الصّباح الوسام  
 بعد فتر وتحت داجى الظلام  
 فاهة ما تبين رجع الكلام  
 ويلتى قد عجلت يا ابن الكرام  
 تتخطى إلى رهوس النيام  
 ودعى اللوم واقصدى فى الملام  
 ل وما جئت ههنا لخصام  
 بسكون وهمزة. وابتسام  
 لا أرى مثلها من الخدام  
 كقيام الشرطىّ عند الإمام  
 واسعات الجيوب والأكمام  
 ض ولو بين زمزم والمقام

فقد طرقها ليلاً ونهبها من نومها فاستقبلته باللوم والنفور ثم لانت وابتسمت  
 وقام الخدام بما تطلب من خدمة الضيف والقيام بتنفيذ رغباته . ولا نرى عند  
 العرجى ما رأينا عند عمر سعيّاً إلى الخروج وحيلة فى التخفى فلا شك أن الرجل وجد  
 حيلة لم يبسطها فى شعره ، ولكنه كان داعراً فأفصح عن غايته فى كل أبيات  
 القصيدة .

وإذا كان العرجى قد سلك سبيل عمر فإنه لم يوفق مثله فى القصة والحكاية  
 وطول الحوار .

وأما الحارث بن خالد الخزومي فقد قال صاحب الأغاني فيه إنه « أحد الشعراء الغزليين . وكان يذهب مذهب عمر بن أبي ربيعة لا يتجاوز الغزل إلى المديح ولا الهجاء ، وكان يهوى عائشة بنت طلحة بن عبيد الله ويشبب بها ، وولاه عبد الملك بن مروان مكة ، وكان ذا قدر وخطر ومنظر في قريش ، وأخوه عكرمة بن خالد الخزومي محدث جليل من وجوه التابعين » .

وقد سقنا عبارة الأصمهاني لنشير إلى أسرة الرجل وما كان عليه أخوه من التقوى والورع والدين وما كان عليه الشاعر من جمال وقدر ومكانة . ومع ذلك كان الحارث ينافس عمر بن أبي ربيعة في غزله بالنساء . وذلك لأن الرجل كعمر والعرجى قد تفرغ له ووقف نفسه عليه واستهان بكل شيء فرصد النساء .

روى أن عائشة حجت وكان الحارث يهواها فأرسلت إليه وهو يحج بالناس أخر الصلاة حتى أفرغ من طوافي فأمر المؤذنين فأخروا الصلاة حتى فرغت ثم أقيمت الصلاة فصلى بالناس ، وأنكر أهل الموسم ذلك من فعله وأعظموه ، فعزله عبد الملك ، وكتب إليه يؤنبه فقال : « ما أهون والله غضبه إذا رضيت ، والله لو لم تفرغ من طوافها إلى الليل لأخرت الصلاة إلى الليل » .

وفي هذه القصة بيان عن مبلغ هواه واستهتاره ، قال الشاعر في هذا الحب :

زعموا بأن البين بعد غد      فالقلب مما أحدثوا يحف  
والعين منذ أجد بينهم      مثل الجمان دموعها تكف  
ومقالها ودموعها سجم :      أقلل حنينك حين تنصرف  
تشكو ونشكو ما أشت بنا      كل بوشك البين معترف

فهو يبكي اللين وهي تحدثه وتجفف من عبرته وتخفف من حنينه على أنها لا تقل عنه شكوى وبلوى .

ووقف الحارث ذات يوم على جمرة العقبة فرأى أحسن الناس وجهاً وكان  
في خدّهما خال ظاهر ، فسأل عنها فأخبر بها ، واستأذنها في الحديث فأذنت  
وليث معها أيام الحج فلما انقضت قال فيها :

ألا قل لذات الخال يا صاح في الخلد      تدوم إذا بانث على أحسن العهد  
ونها علامات بمجرى وشاحها      وأخرى تزين الجيد من موضع العقد  
وترعى من الود الذي كان بيننا      فما يستوى راع الأمانة والمبدي  
وقل قد وعدت اليوم وعداً فأنجزى      ولا تخلفي لا خير في مخلف الوعد  
وجودى على اليوم وعداً فأنجزى      ولا تبخلي قدّمت قبلك في التّحد  
فن ذا الذي يبدى السرور إذا دنت      بك الدار أو يعنى بنأيكم بعدى

وقد وصف وجهها وخذها وجيدها وطلب منها إنجاز الوعد وحفظ العهد .  
ونحن لا نرى في هذا الشعر ما يشبه عمر بن أبي ربيعة أو العرجي وإنما نجد  
سهلاً فحسب لم يتطرق إلى وصف الزيارة والحوار والقصة . وهو يشبه في بذل  
الوعد فحسب حين يقول :

فإن شئت حرمت النساء سواكم      وإن شئت لم أطعم نقاخاً ولا بردا  
وإن شئت غرنا بعدكم ثم لم نزل      بمكة حتى تجلسي قابلاً نجددا

ومن أجل شعره قوله في عائشة بنت طلحة :

أنعم الله بهذا الوجه عيناً      وبه مرحباً وأهلاً وسهلاً  
حين قالت : لا تفشين حديثي      يابن عمي أقسمت قلت أجل لا  
اتق الله واقبلي العذر مني      وتجانى عن بعض ما كان زلاً  
لا تصدّي فتقتليني ظلماً      ليس قتل المحب للمحب حلاً



ما أكن سؤتسكم به فلك العت بي لدينا وحقّ ذاك وقالاً  
لم أرحّب بأن سخطت ولكن مرحباً أن رضيت عنا وأهلاً  
إنّ شخصاً رأيته ليلة البد ر عليه اثني الجمال وحلاً  
بجعل الله كل أنثى فداء لك بل خدّها لرجلك نعلاً  
وجهلك البدر لو سألت به المز ن من الحسن والجمال استهلاً

وهذه دعوى الشاعر عند كل امرأة بأن هواها قاتله وأن صدّها مجهز عليه  
وأنه ينتظر الرضا وإشراق وجهها فهي البدر وكل أنثى لها فداء . وكلّ ما في  
هذه الأبيات من جمال هي رقة أسلوبها وسهولة معانيها . ولقد سقناها لنبرهن  
بمعد الرجل عن مدرسة عمر إلا في اللحاق بالنساء ، وقد فعلها مثله كثير من  
الشعراء .

وثمة شاعر آخر هو أبو دهيل الجهمي ذكرت كتب الأدب أنه شاعر  
غزل وأنه جميل في خلقته منصرف إلى النساء بجملته . وقد استعرضنا شعره فوجدنا  
فيه وجداً وشكوى وبكاء وحرقة وعهوداً يقطعها وأيماناً يقسم بها أنه مخلص وأنه  
وفى ، وهو مع ذلك ينتقل من امرأة إلى أخرى .

ولقد زعموا أن عاتكة بنت معاوية بن أبي سفيان حجت فرآها وأحبها لأول  
نظرة ، وتغزل بها ثم لحقها إلى الشام فرض فيها فقال :

طال ليلى وبت كالحزون وملت الثواء في جيرون  
وأطلت المقام بالشام حتى ظن أهلى مرجمات الظنون  
فبكت خشية التفرق جمل كبكاء القرين لآثر القرين  
وهي زهراء مثل لؤلؤة الغوا ص ميزت من جواهر مكنون

ولإذا ما نسبتهما لم تجدها في سناء من المكارم دون  
ثم خاصرتها إلى القبة الخضر راء تمشى في مرمر مسنون  
ولقد قلت إذ تطاول سقمى وتقلبت ليلتى في فنون  
ليت شعرى أمن هوى طار نوى أم برانى البارى قصير الجفون

ولا شك في أن الذى تخيل القصة والقصيدة تصور ترف بنى أمية وجمال  
نسائهم ، فجعلهن كالجوهر المكنون يمشين على مرمر مسنون فالحب في  
جنون وأرق مستديم .

وصاحب الأغاني يروى أن معاوية نفسه قابل الشاعر ونصحه في مبارحة  
الشام وقال له : « فتیان الشعر لم يتركوا أن يقولوا النسيب في كل من جاز أن  
يقولوه فيه وكل من لم يجز » .

وأغلب الظن أن الحجازيين هجوا بنى أمية في التغزل بنسائهم ، فاخترعوا  
القصص والأشعار مما لا طائل وراءه ولا يمثل مدرسة ابن أبى ربيعة في شئ .

\* \* \*

ولم تنفرد مكة بهذا اللهو الشعري إذا جاز التعبير وإنما شاركتها فيه المدينة  
فقام فيها شعراء تغزلوا ووصفوا دخائل قلوبهم ودقائق عيشهم المترف ، فرسموا  
النساء وما كان يغشاهن من فرح وحزن وألم وسرور ، وما كان يصيب الشعراء  
خلال ذلك اللقاء من عاطفة وشعور . ويمثل هؤلاء جميعاً الأحوص .

والأحوص (عبد الله بن محمد) من الأوس ذو عاطفة جامحة ولسان شديد  
وتقلب في الأمصار وصلته بالأمويين وخليفتهم يزيد بن عبد الملك ، وقد قالوا إنه  
رحل إلى دمشق وتوفي فيها .

وأجل شعره في صاحبتة أم جعفر حيث يقول :

أبئك ما ألقى وفي النفس حاجنة لها بين جلدى والعظام دبيبُ  
لك الله إني واصل ما وصلتني ومثني بما أوليتني ومثيبُ  
وآخذ ما أعطيت عفواً ولأني لأزورّ عما تسكرهين هيوبُ  
فلا تتركي نفسى شعاعاً فإنّهما من الحزن قد كادت عليك تذوب

وهو في هذا الشعر لا يعدو أن يبثها وجدده وهيامه وأن يطلب الاجتماع خوفاً  
على نفسه أن تذهب شعاعاً وأن يموت حزناً . وهو شبيه في ذلك بمدرسة  
العذريين فيصارعنا بقوله :

ثنتان لا أدنو لوصلهما عرس الخليل وجارة الجنب<sup>(١)</sup>  
أما الخليل فلست فاجعه والجار أوصاني به ربي  
عوجوا كذا نذكر لغانية بعض الحديث مطيكم صجي  
ونقل لها : فيم الصدود ولم نذنب بل أنت بدأت بالذنب  
إن تقبلي نقبل وننزلكم منا بدار السهل والرحب  
أو تدبري تكدر معيشتنا وتصدعي متلائم الشعب

فهو على جانب كبير من الموافقة والمتابعة لا يكاد يهجم كما يفعل العرجي  
وعمر ولا يكاد يغدر ، وإنما يصرّح في كثير من مواقفه فيقول :

قالت وقلت تحرّجى وصى جبل امرئ بوصالكم صبّ  
واصل إذاً بعلى فقلت لها : الغدر شيء ليس من ضريسي  
وهذا خلق نبيل لم نجدّه عند غيره إلاّ عند العذريين - إذا صحّ أنهم  
وجدوا على الشكل الذى رويوا - والغريب أن الرجل أحبّ نساء كثيرات

(١) الجنب : اللاصق بك إلى جانبك .

كالذلفاء وعقيلة وسلامة وغيرهن واتصل بهن فقال في الذلفاء :

|                   |                 |
|-------------------|-----------------|
| إنما الذلفاء همى  | فليدعنى من يلوم |
| أحسن الناس جميعاً | حين تمشى وتقوم  |
| حبب الذلفاء عندي  | منطق منها رخم   |
| أصيل الحبل لترضى  | وهى للحبل صروم  |
| حبها في القلب داء | مستكن لا يريم   |

وهو في هذا شريف اللفظ رقيق الوصف عذب الكلام والوزن القافية ،  
ومثله قوله في عقيلة :

|                             |                             |
|-----------------------------|-----------------------------|
| يوى ويومك بالعقيق إذا الهوى | منا جميع الشمل لم يتبدأ     |
| لى ليلتان فليلة معسولة      | ألقى الحبيب بها بنجم الأسعد |
| ومريجة همى على كأننى        | حتى الصباح معلق بالفرقد     |

أو قوله في سلامة القس :

|                        |                         |
|------------------------|-------------------------|
| أسلام هل لمتيم تنويل   | أم هل صرمت وغال ودك غيل |
| لا تصرفى عنى دلاك إنسه | حسن لدى وإن بخلت جميل   |
| أزعمت أن صبايتى أكذوبة | يوماً وأن زيارتى تعليل  |

وهو شعر بسيط سهل رقيق اللفظ قريب المعنى شريف الغاية والهدف .

ومثل الأحوص كثير في أدبنا العربى لا نستطيع أن نعرض لهم ، فقد وجدوا  
في العصر الأموى ولكنهم لم يبلغوا في الفن شأو عمر والعرجى ، وإنما ساروا  
على طريقة المخزومى والأحوص في غزل رقيق ووصف شامل للشعور والعاطفة

دون أن يبلغوا في جنون الهوى مبلغ العذريين ودون أن ياحقوا بأوصاف الحوار  
والقصّة مبلغ أصحاب عمر .

\* \* \*

### في الشام :

سمع أهل الشام بهذا الغزل الطريف الذي كان أهل الحجاز ينقلونه إلى  
أطراف البلاد العربية ، وطربوا له وتغنوا به ، وكانت نساؤهم كما زعم صاحب  
الأغاني موضع هذا الغزل في كثير من الأحيان يسافرن إلى الحج فيرجعن بالمديح  
وقصائد الحب مزهوات خفريات .

فليس من الغريب أن يقول شعراء الشام في الغزل لولا مشاغل الخلافة  
والحزبية والسياسة . ولكننا لم نقع على شاعر خصّ بهذا الفن وقته وجهده ،  
إلاّ الوليد بن يزيد .

وعلى أنّ الوليد كان ابن خليفة ووارث الخلافة فيما بعد يجب أن ينهض  
بالأمور الجسام والمشاكل السياسية فراه ينهض بالترف وباللغو ويتغنى بالنساء  
ويطرب بذكرهن كما فعل الشعراء من أهل الحجاز سواء بسواء .

وقد نقل إلينا أنه أحبّ سلمى أخت زوجته وكلف بها ولكنهم حالوا بينه  
وبينها فأضرموا في قلبه نار الوجد والأسى فراح يشبب بها ، فلما تولى الخلافة  
خطبها وتزوجها ولكنها لم تلبث غير أربعين يوماً ماتت بعدها وخلفت في قلبه  
الجزع والأسى .

والذين يقرءون الديوان لا يجدون فيه شخصية الخليفة أو الوارث للخلافة وإنما  
يقعون على شاعر حضري أقرب إلى الحجازيين في تعابيره وصوره ، كأنه عاش  
فيهم وأخذ عنهم واتبع أساليبهم ، لا يختلف عنهم في اتخاذ الكأس والشرب

خلاناً ، ويزيد عليهم في ترده على الأديرة والكنائس والحدائق يضحك  
للسرور ويتشئ بالطرب والغزل فيقول :

|                            |                                      |
|----------------------------|--------------------------------------|
| حبذا ليلتي بدير « بونّا »  | حيث نسقى شرابنا ونُعَنّي             |
| كيف ما دارت الزجاجة درنا   | يحسب الجاهلون أنا مجننا              |
| ومررنا بنسوة عطرات         | وغناء وقهوة فنزلنا                   |
| وجعلنا خليفة الله « فطرو » | س « مجنوناً والمستشار « يُحَسِّنّا » |
| فأخذنا قربانهم ثم كفّر     | نا لصلبان ديرهم فكفرنا               |
| واشهرنا للناس حيث يقولو    | ن إذا خبروا بما قد فعلنا             |

وهذا لون من المحجون والغزل لم يعرفه الأدب العربي قبل الوليد ، وهو لون له  
ما بعده ، فقد تبعه فيه العباسيون من المجّان والعراقيون في القرن الرابع الهجريّ  
ومشوا على أثره فما كادوا فيه يختلفون ، والفرق بينه وبينهم أنهم مجّان خلعاء من  
عامّة الناس وأوساطهم وأنه ابن خليفة وخليفة فيما بعد . فهم يخافون سطوة  
السلطان ويخشون بأس السعجن وهو لا يخشى أحداً لأنه هو السلطان .

والعجيب أن ينطلق الوليد بن يزيد بهذا المحجون والدّين لما يطو قرناً كاملاً  
على انبثاقه ومن حوله أعداؤه يريدون له الموت والقهر ، وكيف يسمع الناس  
رجلاً من بيت الخلافة يغنى ويشرب أصحابه من حوله :

|                    |                 |
|--------------------|-----------------|
| أصبح اليوم وليد    | هائماً بالفتيات |
| عنده راح ولابر     | يق وكأس بالفلاة |
| ابعثوا خيلاً لخيّل | ورماة لرماة     |

وكيف يسمعونه يصارحهم في عاصمة الخلافة بقوله :

شاع شعري في سليمي واشتهر      ورواه الناس بادٍ وحضر  
وتهادته العذاري بينها      وتغنين به محيٍ اشتهر  
لو رأينا لسليمي أثرأ      لسجدنا ألف ألف للأثر  
واتخذناها إماماً مرتضى      ولكانت حجنا والمعتمر

فهو يهزأ بالدين وشعائره في حجه وعمرته وصلاته وسجوده وأئمنه . ويكاد العقل لا يصدق صدور هذا الشعر عن ابن خليفة في القرن الأول الإسلامي ، فلعلّه من صنع أعداء بني أمية وقد عرفوا في الوليد مجرماً وخلاعة فألصقوا به ديواناً كاملاً فيه هذا الذي رويناه وأفحش مما رويناه .

ومهما يكن من أمر فالغزل الذي جاء فيه هو غزل مستهتر لا يدين بعاطفة أو يطير مع اللذة ويقع مع الشهوة ، فيقول :

وصفت عندي سليمي      فاشتحي قلبي يراها  
لو يرى سلمى خليلي      لدعا سلمى إلهها  
ورأى حين يراها      رب طاسين وطه

فإذا وصف المرأة وصف عجباً :

فإذا ما ذقت فاهها      ذقت عذباً ذا غروب  
خالط الراح بمسك      خالص غير مشوب

ويقول :

أيما واش وشي بي      فاملئي فاهُ ترابا  
ريقها في الصبح مسك      باشر العذب الرضاها

وإذا اجتمع إليها خرج من ذلك بقصيدة فيها وصف ما وقع :

قامت إلى بتقبيل تعاقني ربا العظام كأن المسك في فيها  
ادخل فديتك لايشعر بنا أحد نفسي لنفسك من داء تفديها  
بتنا كذلك لا نوم على سرر من شدة الوجد تدني وأدنيا  
حتى إذا ما بدا الخيطان قلت لها حان الفراق فكاد الحزن يشجها  
ثم انصرفت ولم يشعر بنا أحد والله عني بحسن الفعل يحزها

وهذا شعر أحق أن يقع في العصر العباسي لشدة الحزن في الغزل ووفرة الحرية والصراحة في العمل، ولسنا ندرى أين نضعه من المدارس التي تقدمت، ونظن أنه شب عن طوق الدراسة وانفلت من قيود الحدود ، حتى ليقع في غير العصر الأموي وإنما على الشك فيه المقيمون . ولكننا أوردناه لنرسم رجال العصر وشعراء الغزل وقد عدّ فيهم الوليد بن يزيد فلا محيص عن تحليله ورواية شعره .



## لفضل السائس

### الغزل الصناعي

في الشام والعراق :

كان الحجازيون يطربون لذكر المرأة فيقولون الشعر ويغنون عليه ، وكان أهل الشام والعراق يسمعون هذا الشعر ويطربون له كذلك . ولكن شواغل الحزبية والسياسة صرفتهم عن القول والتغزل على فحولتهم وقوة شعرهم وجمال إقليمهم وفتنة غيطانهم . وإنما قالوا تقليداً واستهلالاً في قصائدهم ومشاركة في الفن ليس غير ، فلم يصرفوا فيه أيامهم ولياليهم كما فعل الحجازيون ، لذلك لم تكن لهم دواوين في الغزل تمتد يدك إليها فتقع على صورة للمرأة وحديث معها وحوار لذيذ وقصة طريفة . وإنما يجب أن تقرأ في تضاعيفها هذه الأبيات المختلطة في بحور المديح والمجاء والنقائض ، يظهر عليها أثر الصنعة حيناً ويغيب في قوالب الجزالة والفصاحة أحياناً ، وهذا هو الغزل الصناعي .

وهؤلاء الشعراء حين أنشدوا أبيات الغزل في مطالع قصائدهم قلّدوا أسلوب الجاهلية في السبّك وفي المعاني ؛ وهم كثر نكتني منهم بالمثلث الأموي الأخطل فالفرزدق فجرير ، وقد اشتهرت فحولتهم في الحزبية والسياسة .

الأخطل ( غياث ) عاش عمره في نضال وسياسة وتفرغ للخمرة لعله ينسى لقبه ويستأنف جدّه ، وساقته الخمرة إلى القينات فقال :

بان الشباب وربما علّته بالغانيات وبالشراب الأصهب  
ولقد شربت الخمر في محانوتها ولعبت بالقينات كل الملعب

ولكنه لا يؤمن بالنساء فيقول كغيره من شعراء الجاهلية :

يرعين عهدك ما رأيك شاهداً وإذا مذلت يصرن عنك ما  
إن الغواني إن رأيك طاوياً برد الشباب طوين عنك  
وإذا وعدنك نائلاً أخلفنّه ووجدت عند عداتهن  
وإذا دعونك عمهن فإنه نسب يزيدك عندهن

فهن كاذبات في هوهن لا يحبن إلا القوة والشباب والغنى والثراء  
لا يؤمن بالقلب ولا يدين بالحب فيقول :

وحائمتان تبغيان سرى جعلت القلب دونهما حجا  
وصاحب صبرة صاحبت حيناً فتبت اليوم من جهل وت  
وإذا أتيت للأخطل أن يفتتح قصائده بالغزل وصف المرأة كما  
مريضة العيون جميلة العنق طيبة المسك كثيرة الحلى ، وجعل لها أسماء  
سليمى وسعاد وأسماء وأروى . ووصف الشيب وانصراف النساء عن الش  
فتنكرت لما علتني كبرة عند المشيب وآذنت بـ  
لما رأت بدل الشباب بكث له والشيب أرذل هذه ا  
ولو أراد الأخطل أن ينصرف إلى النسب لتمكن منه لفحولة  
وأسلوبه ؛ ولكنه لن يملك قلباً كقلب الغزلين ولن يتفرغ لهذا الفن ما  
تقرعه ألسنة الشعراء وينبرى لمقارعتها في الصباح وفي المساء .

وأما الفردق همام بن غالب فلم يكن يحسن الغزل والتشبيب بالنس  
كان يشعر بجفاف العاطفة في شعره كله ، وقد ساقه هذا الجفاف إلى

وصعوبة ، وكأنه شعر بذلك فراح يقلّد الغزلين من الجاهليين والحجازيين  
في العصر الأموي لعله يظفر برضا المغنين وإقبال الشباب ؛ فعمل قصائد  
ذكر فيها النساء وقصص قصصهن وزيارته لهن ، ثم أفاض في خيانة النساء  
وتقلّبهن وبعدهن عن الوفاء وكرههن للشيب :

تضاحكت أن رأيت شيباً تنفّز غنى كأنها أبصرت بعض الأعاجيب  
من نسوة لبنى ليث وجيرتهم برّحن بالعين من حسن ومن طيب<sup>(١)</sup>  
فقلت إنّ الحواريات معطبة إذا تفتّلن من تحت الجلابيب<sup>(٢)</sup>

لذلك يخاف الفرزدق من النساء وينظر إليهن نظرة الجاهليين :  
تزوّدَ نظرة لم تدع له فؤاداً ولم تشعر بما قد تزوّدا  
فلم أر مقتولا ولم أر قاتلاً بغير سلاح مثلها حين أقصدا<sup>(٣)</sup>

والشاعر يحب فيهن الشرف والراحة والغنى :  
إذا شئت غناني من العاج قاصف على معصم ريان لم يتخذد<sup>(٤)</sup>  
لبياض من أهل المدينة لم تعش ببؤس ولم تتبع حمولة مجحد<sup>(٥)</sup>  
وهذه الأوصاف تنطبق على ما أحب أهل الجاهلية عند نسائهن ؛ وقد زاد  
على ذلك حبه للشرف وبعده عن الفحش .

أحبّ من النساء وهنّ شتى حديث السّر والحدق الكلالا  
موانع للحرام بغير فحش وتبذل ما يكون لها حلالا

(١) برّحن بالعين : أى أمرضنها ، والتبريح : العذاب .  
(٢) الحواريات : نساء الأمصار لبياضهن ونعمتهن - المعطبة : الهلاك .  
(٣) أقصد السهم : أصاب مقتله .  
(٤) العاج : سوار من عاج .  
(٥) المجحد : قليل الخير والمال .

ويلجّ في المعنى فيرويه في قصيدة أخرى يقول فيها :

|                               |                                 |
|-------------------------------|---------------------------------|
| نؤوم عن الفحشاء لا تنطق الخنا | قليل سوى تخيلها القوم ذامها     |
| أفاطم ما يدريك ما في جوانحي   | من الوجد والعين الكثير سجامها   |
| فلو بعنى نفسى التي قد تركتها  | تساقط ترى لافتداها سوامها       |
| لأعطيت منها ما احتكمت ومثله   | ولو كان ملء الأرض يجدى احتكامها |
| قد اقتسمت عيناك يوم لقيتنا    | حشاشة نفس ما يحلّ اقتسامها      |
| فكيف بمن عيناه في مقلتيهما    | شفاء لنفس فيهما وسقامها         |
| إذا هي نأت عنى حننت وإن دنت   | فأبعد من بئس الأنوق كلامها      |

وفاطمة هذه جميلة العينين قويّتا الفتك فقد قتلتا حشاشته وهما شافيتان لو أرادت صاحبتهما . وليس في هذا الغزل ما يروى النفس ، وإنما هو إعادة لمعان تكررت حتى ملّتها السامع ؛ فالفرزدق بعيد عن فن الغزل وهو ينحت من صخر لا يحسّ بالحلب ولا يتأثر بالعاطفة .

وجرير بن عطية وحده أليف الرقة في غزله ، وفق فيه إلى حد بعيد ، فقد طرق معانى القدماء بالفاظ رقيقة وعبارات عذبة وموسيقا جميلة . وهو القائل :

قلبي حياقي بالحسان مكلف ويحبّهن صداى في الأصداء  
إلى وجدت بهن وجيد مرقش ما بعض حاجتهن غير عناء

ويخيل للسامع أنه عمر بن أبي ربيعة حين يقول « قلبي مكلف بالحسان » وأنه سبرى منه زير نساء ، ولكن الواقع أنه تغزل ففشل في كثير من حبه على حد قوله :

إنّ الغواني قد قطعن مردّتي بعد الهوى ومنعن صفو المشرب  
ولإذا وعدتك نائلاً أخلفنّه وجعلن ذلك مثل برق الخلب  
وقد مرّ بنا مثل ذلك عند الأخطل في اللفظ والمعنى . فهل كانت النساء  
آنذاك مخلفات للعهد خائنات للودّ ينصرفن عن الرجال حين يقبل المحبون  
على الشيب :

أهذا الود زادك كل يوم مباعدة لإلفك واجتنابا  
لقد طرب الحمام فهاج شوقاً لقلب ما يزال بكم مصابا  
ونرهب أن نزوركم عيوننا مصانعة لأهلك وارتقابا  
فما باليت ليلتنا بنجد ودمع العين ينحدر انسكابا  
ألا يا قلب ما لك إذ تصابى وهذا الشيب قد غلب الشبابا  
كما طرد النهار سواد ليل فأزيع حين حلّ به الذهابا  
سأحفظ ما زعمت لنا وأرعى إياب الودّ إن له إيابا

فهو كغيره يصف الحجاب والأهل ومن يقف سداً أمام المحبوبة  
ويحول دون الزيارة ، ويصف الشاعر العيون والأسنان والحدود ، ويبكى كما  
يبكى غيره للهجر والفراق ، ويخاف القتل من العيون ويطلب القود من النساء  
ويرميهن بالخيانة . وقد رق في بعض غزله حتى حسبنا أنه سيكون غزلاً لو انفرد  
للقول في هذا الباب ، ولكنه خيب الظن فما وقعنا على ما يروى غلتنا في ديوانه .  
ونحسب أن أجمل غزله قصيدته المشهورة التي يقول فيها :

يا ليت ذا القلب لاقى من يعلّله أو ساقياً فسقاه اليوم سلوانا  
أو ليتها لم تعلقنا علاقتها ولم يكن داخل الحب الذي كانا  
هلاًّ تحرّجت مما تفعلين بنا يا أطيب الناس يوم الدجن أردانا

قالت ألمّ بنا إن كنت منطلقاً  
 يا طيب هل من متاع تمتعين به  
 ما كنت أول مشتاق أخى طرب  
 يا أم عمرو جزاك الله مغفرة  
 ألسنت أحسن من يمشى على قدم  
 يلقي غريمكم من غير عسرتكم  
 لا تأمنن فإني غير آمنه  
 قد خنت من لم يكن يخشى خيانتكم  
 لقد كتبت الهوى حتى تهيمنى  
 لا بارك الله فى الدنيا إذا انقطعت  
 يا أم عثمان إن الحبّ عن عرض  
 ضنت بموردة كانت لنا شرعاً  
 كيف التلاقي ولا بالقيظ محضركم  
 ما أحدث الدهر مما تعلمين لكم  
 أبدّل الدهر لا تسرى كواكبه  
 إن العيون التى فى طرفها حور  
 يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به  
 ولا أنخالك بعد اليوم تلقانا  
 ضيفاً لكم باكرآ يا طيب عجلانا  
 هاجت له غدوات البين أحزانا  
 ردى على فسؤدى كالذى كانا  
 يا أملح الناس كل الناس لإنسانا  
 بالبدل بخلاً وبالإحسان حرمانا  
 غدر الخليل إذا ما كان ألوانا  
 ما كنت أول موثوق به خانا  
 لا أستطيع لهذا الحب كتماناً  
 أسباب دنياك من أسباب دنيانا  
 يصبى الحليم ويبيكى العين أحياناً  
 تشفى صدى مستهام القلب صدياناً  
 منا قريب ولا مبداك مبداناً  
 للعجل صرماً ولا للعهد نسياناً  
 أم طال حتى حسبت النجم حيراناً  
 قتلنا ثم لم يحيين قتلانا  
 وهنّ أضعف خلق الله أركاناً

أوردنا كثيراً من أبيات هذه القصيدة على غير عادتنا ، ولكننا رأينا أنها  
 تستحق أن تمثل العصر الأموى فى الشام والعراق ، فهى من رائع القول ورقيق  
 المعانى وخفة اللفظ وعظيم موسيقاه حتى لتصلح للغناء قبل كل شئ . فهى

حوار في أولها بينه وبينها ، ودعوة للقاء ومديح لا يتناهى ، وأمنية عذبة في الإبقاء على العهد والاحتفاظ بالود ، فالفراق ينهى أسباب الحياة ، وينتهى الشاعر بوصف وجه المحبوبة فيصف العيون ثم الريق والأسنان . وهذه القصيدة لا تصف ما بالمحبوبة من عاطفة وما يلف رأسها من أفكار ، ولا ترسم أعضاء الجسم في شكل مفصل ، فهي لا تلمّ بالمدرسة الحسيّة الجاهلية ولا تقع من المدرسة البدوية في الجنون والهيام ، كما أنها لا تشبه المدرسة الحضرية في الحوار والقصة والزينة . وإنما هي تقليد لهذا الغزل القديم ظهر رقيقاً بديعاً مسرفاً في السهولة والبساطة حتى ليبلغ كل قلب ويطرب كل سمع .

ولن نذهب أبعد من هذا في استعراض الأمويين في الشام والعراق فكأنهم شبيه في غزله بالأخطل أو بالفردق ، ولن تقع على شاعر أرقّ في تقليده من جرير . وجرير مع هذا لا يبلغ شأوا الحضريين أو البدويين من شعراء الحجاز كما رأينا . لذلك نرى أن الغزل وُلد في الحجاز ولم يتحول عنه ، ففيه ارتفعت رأيته وقويت مدرسته حتى كانت في حُجَرٍ عديدة آوت العفيف وغير العفيف ، وضمت الصّادق والكاذب ، ولكنها كانت حقاً مدرسة الغزل في ألوانه جميعها .

فإذا شئت أن ترى لوناً آخر من الغزل وتسمع بجانب آخر من القول فيه فمعدنا في القسم الثاني ، حيث ننتقل بك إلى العصر العباسي والعصور التي تليه حتى العصر الحاضر ، لترى كيف تطوّر الغزل على اختلاف عصورنا الأدبية .

## فهرست

| صفحة |   |
|------|---|
| ٥    | تمهيد   |
| ٧    | مقدمة : المرأة والغزل                           |
| ١٠   | الفصل الأول : الغزل عند العرب                   |
| ١٥   | الفصل الثاني : الغزل في الجاهلية                |
| ٣١   | الفصل الثالث : الغزل في صدر الإسلام             |
| ٣٦   | الفصل الرابع : الغزل في العصر الأموي            |
| ٦٢   | الفصل الخامس : المدرسة الحضرية في الحجاز والشام |
| ٨٧   | الفصل السادس : الغزل الصناعي                    |



|                |                    |
|----------------|--------------------|
| رقم الإيداع    | ١٩٨١/٥١٨٧          |
| الترقيم الدولي | ISBN ٩٧٧-٧٣٥١-٨٨-٧ |

١/٨١/٣٣٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)





## مجموعة فنون الأدب العربي

لقد قصد من هذه المجموعة أن تجلو للقارئ العربي ألواناً من الفنون الأدبية التي لجها الأدب العربي في مختلف أقطاره وعصوره . فهي تقف أمام كل فن أدبي الجبه في جزء أو أكثر من هذه السلسلة التي سيجتمع فيها محصول وافر من فنون دب المختلفة التي تكون في مجموعها ذلك الهيكل الأدبي الضخم الذي شيدته ربية في تاريخها الطويل . . .

وفضل هذه المجموعة أنها تعالج الأدب العربي لا على طريقة السنين ، ولا على ريقة التقسيم إلى عصور كما ألفنا في كتب التاريخ الأدبي . . . ولكنها تعالج أدب العربي على مدى ما اتسع فيه من فنون . . . فللمقامة موضوع ، وللقصة رصوع ، وللغزل موضوع ، وللوصف موضوع . . . وهكذا ستكرر هذه المجموعة لي قدر ما في الأدب العربي من فنون .

سدر منها :

- في الفن الغنائي : الغزل (جزءان) ، الرثاء ، الوصف ، المديح ، الفخر ، والحماسة ، الهجاء ، الموشحات والأزجال .
- في الفن القصصي : المقامة ، التراجم والسير ، الرحلات ، الترجمة الشخصية .
- في الفن التمثيلي : المسرح .
- في الفن التعليمي : النقد ، الخطب والمواعظ ، الحكم والأمثال .

تحت الطبع :

- في الفن الغنائي : الزهد والتصوف .
- في الفن القصصي : الملحمة ، القصة ، الحكاية والأقصص .
- في الفن التمثيلي : الفاجعة والمأساة ، الملهاة .
- في الفن التعليمي : منظومات الشعر .